الفصل الخامس
حقيقة النسخ

تمهيد

تحليل عناصر آية النسخ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ (البقرة: ١٠٦).

العنصر الأول : الآية .

الآية فى اللغة .

الأصل فى الآية أنها (كونية حسية) .

البصر وسيلة إدراك الآية .

شروط إيجاد الآية الكونية .

التخليط بين (الآية فى الوحى) و(الآية فى الإصطلاح) .

العنصر الثانى : الإنساء .

العنصر الثالث : النسخ .

تطبيق معانى النسخ فى اللغة على الآية المتلوَّه .

تطبيق معانى النسخ فى اللغة على الآية الكونية .

إختبار معانى النسخ فى الآية الكونية مع معنى الإنساء .

العنصر الرابع : الخيرية .

العنصر الخامس : المثلية .

العنصر السادس : القدرة .

الإستشهاد بالسياق لمعرفة المقصود بالنسخ .

علاقة آية النسخ بآية المحو والإثبات ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الرعد: ٣٩) .

علاقة آية النسخ بآية التبديل ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ١٠١) .

خلاصة البحث فى هذا الفصل .

obeikandl.com

تمهيد

كما قلنا فى الفصل الأول من هـذا البحـث أن الإمـام الطـبرى أورد فى تفسـيره بضـعة أحاديث عن الصحابة والتابعين قالوا فيها برأيهم فى معنـى النسـخ ، أو مـا هـو المقصـود بالنسخ ، ومن هذه الأحاديث :

[١٤٧٩ ـ عن السدى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ أما نسخها فقبضها .

١٧٥٠ ـ عن ابن عباس ، قوله ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ يقول : ما نبدل من آية .

١٧٥١ ـ عن أصحاب عبـد الله بـن مسـعود أنهـم قـالوا ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ نُثبـت خطها ونبدل حكمها .] (١)

ففى الحديث الأول نجد أن النسخ يكون بمعنى القبض والإمساك ، فتكـون معناهـا : (ما نقبض أو ما نمسك من آية أو ننسها) وهذا الفهم بعيد جدا عن سياق الآيـة ، سـواء كان الإنساء بمعنى النسيان أو بمعنى الترك .

وفى الحديث الثالث : عن أصحاب عبد الله بن مسـعود يكـون النسـخ بمعنـى إثبـات التلاوة مع تبديل الحكم .

والواضح أن تبديل الحكم هنا سيكون بآية أخرى جديدة غـير المنسـوخة ، فلـماذا يـتم إثبات خط الآية مع تعطيل حكمها والإلتجاء إلى آية جديدة بحكم جديد مـع تـرك الآيـة مثبوتة فى الكتاب .

لماذا لا يتم إعدامها وحذفها نهائيا من الكتاب ما دامت عاطلة لا تعمل ؟

أما الحديث الوارد عن ابـن عبـاس ـ رضى الله عـنهما ـ فهـو يقـول بـأن النسـخ معنـاه الإبدال.

وعلينا أن نلاحظ ، أن ابن عباس لم يقل ما نبدل من (حكم) آية ولكنه قال : ما ننسـخ أى ما نبدل ، ولم يضف كلمة حكم .

---

(١) الطبرى جـ١ صـ٦٩٥ .

وبالتالى فإن هذا التفسير لابن عباس ، يتفق مع قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل : ١٠١) .

إذاً ، فقوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ عند ابن عباس يعنى (ما نبدل من آية) وهذا سيتساوق مع قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ .

وقد قلنا من قبل ـ فى الفصل الأول من هذا البحث ـ أن أول من أضاف كلمة (حكم) إلى كلمة (آية) هو الإمام الطبرى آخذاً برأى أصحاب عبد الله بن مسعود إذْ أنه قال فى تفسيره [يعنى جل ثناؤه ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ ما ننقل من (حكم آية).] (١)

كما أننا لاحظنا أنه أول من وضع قواعد النسخ فقال [ولا يكون ذلك (أى النسخ) إلا فى الأمر والنهى ، والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ] (٢)

وإذا انتقلنا إلى الإمام الرازى نجد أنه يقول بوقوع النسخ حيث قال [النسخ عندنا جائز عقلا ، واقع سمعا] (٣) إلا أنه يستند فى قوله هذا ليس على قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ ، ولكن على قوله بسورة النحل ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ ، وأيضا على قوله تعالى بسورة الرعد ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ حيث يقول : تمسكنا فى وقوع النسخ بقوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ ، والإستدلال به أيضا ضعيف لأن (ما) ههنا تفيد الشرط والجزاء ، وكما أن قولك : من جاءك فأكرمه ، لا يدل على حصول المجىء ، بل على أنه متى جاء ، وَجَبَ الإكرام ، فكذا هذه الآية لا تدل على حصول النسخ ، بل على أنه متى حصل النسخ ، وجب أن يأتى بما هو خير منه ، فالأقوى أن نعوّل فى الإثبات على قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ (النحل : ١٠١) ، وقوله تعالى ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الرعد : ٣٩) (٤) .

---

(١) الطبرى جـ١ صـ٦٩٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٣١٠ .

(٤) السابق صـ٣١٢ .

فبالرغم من أن الإمام الرازى يسلم بوقوع النسخ ، إلا أنه لا يستند فى تسليمه هذا على الآية (البقرة : ١٠٦) كما هو مشهور عند القائلين بالنسخ ، والسبب فى عدم استناده على هذه الآية ، هو ورود حرف (ما) فى بداية الآية ، والذى يفيد الشرط والجزاء ، أى أن النسخ هنا ليس فى حالة الوجوب والتحقق ولكنه فى حالة الإمكان .

أى أن المعنى يكون : إذا حدث نسخ لآية أو إنسائها فسوف نأتى بخير منها أو مثلها ، لذلك فإن الإمام الرازى يُعوِّل فى وقوع النسخ على الآية (النحل : ١٠١) والآية (الرعد : ٣٩) .

ولكن علينا أن نلاحظ هنا أنه بالرغم من أن الإمام الرازى ، ضعَّف وقوع النسخ بالإستناد إلى الآية (البقرة : ١٠٦) ولكنه عوَّل وقوعه على آيات أخرى ، نلاحظ أنه يريد أن يتساوق مع الأفكار السائدة ، ويتساير مع الأفكار السائرة للقائلين بالنسخ .

والإمام الرازى يقول فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ يقول : [إعلم أن هذا هو النوع الثانى من طعن اليهود فى الإسلام ، فقالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا وغداً يرجع عنه ، فنزلت هذه الآية][1]

ويقول فى قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ (البقرة : ١٤٢) [إعلم أن هذا (القول) هو الشبهة الثانية من الشبه التى ذكرها اليهود والنصارى فى الإسلام ، فقالوا : النسخ يقتضى إما الجهل أو التجهيل ، وكلاهما لا يليق بالحكيم ، وذلك لأن الأمر إما أن يكون خاليا عن القيد (أى ليس يكون مقيدا بقيد الدوام (أى يكون العمل به مستمرا إلى الأبد) .

فإن كان خاليا عن القيد (أى ليس له وقت محدد) لم يقتض الفعل إلا مرة واحدة . فلا يكون ورود الأمر بعد ذلك على خلافه نسخاً .

وإن كان مقيدا بلا دوام (أى له وقت محدد) فههنا ظاهر أن الوارد بعده على خلافه لا يكون ناسخا له (لأنه عُلم له وقت محدد لانتهاء حكمه) .

وإن كان مقيدا بقيد الدوام (أى يكون العمل به مستمرا إلى الأبد) ... مع أنه ذكر لفظاً يدل على أنه يبقى دائما ، ثم إنه رفعه بعد ذلك ، فههنا كان جاهلا ، ثم بدا له ذلك .

---

(١) السابق صـ٤٦٠ .

وإن كان عالما بأنه (الأمر) لا يبقى دائما ـ مع أنه ذكر لفظا يدل على أنه يبقى دائما ـ كان ذلك تجهيلا ، فثبت أن النسخ يقتضى إما الجهل أو التجهيل ، وهما محالان على الله تعالى ، فكان النسخ منه محالا ، فالآتى بالنسخ فى أحكام الله تعالى يجب أن يكون مبطلا . فدل هذا على أن هذا التغيير (تغيير القبلة) ليس من الله تعالى] [1] أى أنه من عند محمد وليس من عند الله ، وبالتالى فإن محمداً يكون قد أتى بالكتاب كله (أى بالقرآن) من عنده وليس من عند الله .

والفقرة السابقة للإمام الرازى ـ سواء كانت رأيا شخصيا له ، أو هى رأى المنكرين للنسخ من اليهود والنصارى وغيرهم ـ نقول أن هذه الفقرة تعتبر ميزانا دقيقا لنقد النسخ.

فأول قاعدة فى هذا الميزان النقدى هى : أن النسخ يقتضى الجهل أو التجهيل وكلاهما لا يليق بالمشرع الحكيم .

فسواء كان هذا التشريع تشريعا دينيا إلهيا ، أو تشريعا وضعيا من وضع البشر ، فإن تشريع حكم ثم نسخه وإبطاله يقتضى إما الجهل أو العبث بالتشريع .

لأن المشرع الحكيم عندما يأمر بحكم ما ، فإن لديه من العلم عن الحكم وعن المكلَّف بهذا الحكم ، ما يجعل هذا الحكم حكيما ، لأنه حكم على علم وعلى حكمة .

فإذا أمر المشرع بحكم لظرف ما ، ثم قام بتغيير هذا الحكم مع ثبوت نفس الظرف ونفس حال المكلَّف ، فإن هذا يكون عبثاً ، حيث لا توجد حكمة من تغيير الحكم ما دامت نفس الأحوال والظروف ثابتة .

القاعدةالثانية فى الميزان النقدى وهى : إن كان الحكم خاليا عن القيد ؛ أى ليس له وقت محدد ؛ بل ينتهى فى أى وقت ، فإذا جاء حكم جديد على خلافه فلا يعتبر الحكم الجديد ناسخا للحكم الأول .

وذلك لأن الحكم الأول إنتهى مع ظرفه وحاله ، فى حين أن الحكم الجديد هو حكم لظرف وحال جديدين ، فلا يكون هناك نسخ .

---

* ـ ما بين الأقواس الصغيرة ، توضيح من الباحث .

(١) السابق صـ٤٦٢ .

ونستفيد من هذه القاعدة الثانية فى أنه إذا كان الحكم الجديد جاء لأجل ظرف جديد فلا يكون هناك نسخ ، لأن الحكم القديم انتهى بذاته مع ظرفه دون احتياج إلى ناسخ .

القاعدة الثالثة فى الميزان النقدى وهى : إن كان الحكم مقيدا بلا دوام ؛ أى له وقت محدد ، فإن هذا الحكم ينتهى بانتهاء الوقت المحدد له ؛ أى أنه ينتهى بانتهاء القصد منه والغاية منه ؛ أى أنه تنتهى غايته ، وهذا ما عرَّفناه من قبل بأنه حكم موقوت بغاية ، فإذا تمت الغاية ، تم الحكم وانتهى عمله لحصول الغاية من الحكم ، وهذا يظهر فى مواقف الإبتلاء والإختبار ، فإن للإبتلاء أو الإختبار غاية وهدف ، وهى التمحيص والتطهير من أجل الإصطفاء ، فإذا انتهى وقت الإبتلاء ـ كما فى قصة الذبيح بين سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل ـ فإن الحكم ينتهى بانتهاء حصول الغاية من الإبتلاء .

القاعدة الرابعة فى هذا الميزان النقدى هى : إن كان الحكم مقيدا بقيد الدوام ؛ أى يكون العمل به مستمرا إلى الأبد ؛ وأن المشرع ذكر لفظا يدل على دوام هذا الحكم إلى الأبد ، ثم قام المشرع بعد ذلك برفع هذا الحكم وغيَّره ، فإن ذلك يدل على أن المشرع عنده قصور فى العلم والحكمة وعدم إلمام وإحاطة بالأمر الذى أصدر له هذا الحكم ، أى أنه كان جاهلا بالأمر .

أما إذا كان عالما بأن هذا الحكم لن يبقى إلى الأبد ولن يستمر دائما ، ومع ذلك فقد ذكر لفظا يدل على أنه مستمر إلى الأبد ، فعندئذ يكون المشرع عابثا ، وتنتفى عنه صفتى العلم والحكمة .

وقبل أن نترك الإمام الرازى ، نريد أن نؤكد ما قاله ، من أنه لا يستند فى القول بالنسخ على الآية الشهيرة ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ، ولكنه يستند على آيتين أُخريين هما آية سورة النحل ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ ، وعلى آية سورة الرعد ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ .

أما الإمام الشوكانى فيقول [النسخ فى كلام العرب على وجهين : أحدهما النقل ، كنقل كتاب عن آخر ... والوجه الثانى : الإبطال والإزالة وهو المقصود هنا .

وهذا الوجه الثانى ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة : أحدهما إبطال الشىء وزواله وإقامة آخر مقامه ، ومنه : نسخت الشمسُ الظلَّ ، إذا أذهبته وحلت محله ، وهو معنى قوله ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ .

والثانى : إزالة الشىء دون أن يقوم مقامه آخر ، كقولهم نسخت الريحُ الأثر ، ومن هذا المعنى ، قوله تعالى ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ أى يزيله] [1]

فالإمام الشوكانى يرى أن معنى قوله ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ يكون بمعنى إبطال الشىء وزواله وإقامة آخر مقامه ، وهو يكون هنا ، بمعنى الإبدال ، لأنه لا يكون هناك زوال مطلق للشىء ، أو إعدام نهائى ، لأننا كما قلنا : أن الشمس إذا نسخت الظل فإنها لا تعدم الظل وجوده ، ولكنها تحل محله فى الوقت الذى يحل الظل فى مكان آخر ، أى أن النسخ هنا يكون بمعنى الإزاحة .

فالشمس أزاحت الظل لتحل محله ، وفى الوقت نفسه فإن الظل يحل فى محل آخر .

وعلينا كذلك أن نفهم أن الإبدال لا يكون بمعنى المحو أو الإعدام أو الإزالة إذا كان هذا الإبدال لكلام الله ووحيه ، لأن هذه المعانى السابقة لا تتفق مع قوله تعالى ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ أو قوله تعالى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

وعندما تعرض الإمام محمد عبده لتفسير آية ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال : [للمفسرين فى تفسير هذه الآية طريقان : أحدهما أنها على حد قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ (النحل : ١٠١) .

فالنسخ هنا بمعنى التبديل ، أى إذا جعلنا آية بدلا من آية ، فإننا نجعل هذا البدل خيرا من المبدل منه أو مثله على الأقل .

وقالوا : أن المراد بالنسيان ، هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فتُنسى بالمرة .

قال : وهذا بمعنى التبديل ، فما هى الفائدة فى عطفه عليه (أو) ؟ ، وهل هو إلا تكرار يجلُّ كلام الله عنه .] [2]

يقصد الإمام : أن النسخ هنا هو بمعنى التبديل ، فإذا كان هناك من يرى أن النسخ هنا بمعنى الإزالة ، ويرى كذلك أن النسيان هو نسيان الآية برمتها ، أى انعدامها ، فإنه لا يكون هناك فرق بين المعنيين ، إذْ أن الإزالة والإعدام يكونان بمعنى واحد .

---

(١) فتح القدير جـ صـ١٢٦ .

(٢) المنار جـ١ صـ٣٤٢ .

فإذا كانا بمعنى واحد ، فلماذا يكون هناك عطف للنسيان (بمعنى الإعدام) على النسخ (بمعنى الإزالة) وهما بمعنى واحد ؟

والطريق الثانى للمفسرين فى تفسير هذه الآية هو : [أن المراد نسخ حكم الآية ... وهذا هو القول المختار للجمهور ، وقالوا فى توجيهه : إنه لا معنى لنسخ الآية فى ذاتها ، ولا حاجة إليه ، وإنما الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال ، فإذا شُرع حكم فى وقت لشدة الحاجة إليه ، ثم زالت الحاجة فى وقت آخر ، فمن الحكمة أن يُنسخ الحكم ويبدل بما يوافق الوقت الآخر ، فيكون خيرا من الأول أو مثله فى فائدته من حيث قيام المصلحة به .] (١)

وهنا نرى أنهم لما لم يفهموا المعنى الحقيقى والمقصود من كلمة النسخ فى الآية ، إعتبروا أن الآية آية أحكام وأن نسخها لا فائدة فيه إلا إذا كان النسخ هو نسخ الحكم المتضمن فى الآية .

وبالتالى فهم أضافوا ـ كما فعل الإمام الطبرى من قبل ـ أضافوا كلمة (حكم) إلى كلمة (آية) فتصبح الآية (ما ننسخ من حكم آية) بدلا من قول الله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ .

تحليل عناصر آية النسخ (البقرة : ١٠٦)

سوف نقوم بعملية تحليل لعناصر الآية (﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ لكى نتعرف على حقيقة النسخ المقصود فى هذه الآية : هل هو نسخ آيات كونية ، أم هو نسخ أحكام ؟

العنصر الأول : الآية

يقول تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٠٦) .

أول عنصر سوف نتعرض له فى هذه الآية كلمة (آية) .

فما المقصود بهذه الكلمة ؟ هل هى تعنى الآية الكونية الحسية المرئية ؟

أم هى تعنى آية من آيات الوحى ؟

---

(١) السابق .

الآية فى اللغة

فى لسان العرب [الآية : العلامة . وقوله عز وجل ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ ﴾ ، قال الزجاج : معناه : نريهم الآيات التى تدل على التوحيد فى الآفاق أى ، آثار من مضى قبلهم من خلق الله .

وتأيَّا الشىء : تعمَّد آيته ؛ أى شخصه ، وآية الرجل : شخصه .

والآية : من التنزيل ، ومن آيات القرآن العزيز .

سميت الآية من القرآن آية ، لأنها علامة لانقطاع كلام عن كلام .

وآيات الله : عجائبه .] (١)

فالآية هى العلامة والأثر والدلالة : أى التى تدل على صانعها .

كما قال قس بن ساعدة الإيادى : يا معشر إياد : البعرة تدل على البعير ، وخط السير يدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير ؟

وقال قائل :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد .

فالآية هى الأثر الدال على فاعله .

والآية من طبيعتها التشخص ، وكما قيل : آية الرجل : شخصه .

فآية أى شىء هى الشىء نفسه ؛ أى شخوصه وتحدده وتعينه فى الواقع أو فى الوجود .

فالشجرة آية ، ونتعرف على هذه الآية بإدراكنا لها بصرياً ، بشخوصها وتحددها وتعينها فى الواقع الخارجى .

والشمس آية ، ونتعرف عليها برؤيتنا لها بسبب تحددها وتعينها فى الواقع الخارجى .

ونظرا لما فى الآية من إبداع ، فإنها تثير فى النفس الإعجاب والدهشة ، كما أنها تدل على واجدها ، لأن الآية (فعل) ، والفعل يدل على فاعله .

ولأنها تثير فى النفس الإعجاب فهى (عجيبة) لأنها وُجدت بالإبداع .

---

(١) لسان العرب ، مادة : أيا .

والآية (عبرة) لأنها تَعْبُرُ بالمشاهد لها من رؤية الآية إلى معرفة خالق الآية ومبدعها .

وإذا قمنا باستقراء كتاب الله لكى نتعرف على كلمة (آية) ، وجدنا أن لفظة (آية) عندما تأتى مفردةً ، فإنها لا تعنى إلا العلامة أو الدلالة الحسية المشاهدة المرئية .

أما إذا جاءت فى صيغة الجمع (آيات) فإنها يمكن أن تعنى الآيات الحسية المشاهدة المرئية ، ويمكن أن تعنى آيات الوحى أو آيات التنزيل .

ولكنها عندما تكون آيات مُوحَى بها أو منزلة ، فإنها عندئذ تكون قد تحولت من وجودها الكونى إلى الوجود السمعى ؛ أى أصبحت معانى .

فإنزال الآيات أو تلاوتها يكون عبارة عن تحويل الآيات أو نقلها من صورتها المكتوبة والتى يمكن قراءتها إلى الصورة السمعية .

وبواسطة الإسماع عن طريق التلاوة ، تتحول الآيات الكونية إلى معانٍ يُتاح للنفس تداولها فيما بينها ، كما تُتاح للأنفس تداولها فيما بينها فيحدث التعارف .

الأصل فى الآية أنها كونية حسية

فالأصل فى الآية أنها كونية مرئية مشاهدة محسوسة .

ومن الآيات التى تدل على أن الآية كونية مرئية محسوسة :

قوله تعالى : ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ (هود : ٦٤) .

فالآية هنا هى ﴿ نَاقَةُ ﴾ ، والناقة آية كونية حسية مرئية .

وقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ (الإسراء : ١٢) فالليل هنا آية كونية مرئية يراها الناس ، وكذلك النهار .

وقوله تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ (يس : ٤١) فالفلك هنا آية كونية مرئية تجرى فى البحر بما ينفع الناس .

البصر وسيلة إدراك الآية

ولأن الآية كونية مرئية فإن وسيلة إدراكها هو البصر ، فيقول الله تعالى عن فرعون ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ (طه : ٥٦) ، ويقول كذلك ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾ (البقرة : ٢١١) وقوله تعالى ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾ (الأنعام : ٢٥) .

وقول نبى الله صالح لقومه ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ (الأعراف : ٧٣) ، وقوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾ (الإسراء : ٥٩) ، وقوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف : ١٠٥) ، وقوله تعالى ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء : ٤) .

فمن مواصفات الآية الكونية أنها مرئية ظاهرة واضحة بينة مبصرة ، كما فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (النمل : ١٣) ، أى أن من طبيعة الآية ، أن تكون محددة معينة مشخصة فى الواقع الخارجى فهى ظاهرة بينة واضحة موضوعة للرؤية والمشاهدة .

والآية تثير فى النفس الدهشة والإعجاب والعبرة والموعظة والإعجاز كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا ﴾ (المؤمنون : ٢١) ، وقوله تعالى ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (النور : ٤٤) أى أن المشاهد لهذه الآيات يَعْبر بها من وجود الآيات إلى واجد الآيات فينتقل من العالم المشهود إلى العالم الغيبى .

وقوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ (الكهف : ٩) ، وقول امرأة سيدنا إبراهيم ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (هود : ٧٢) .

والآية علامة وشاهد ودليل ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ ﴾ (البقرة : ٢٤٨) .

وزكريا ـ عليه السلام ـ إذْ قال ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم : ١٠) .

وقول عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل : عمران ٤٩) والآية موعظة ، كما فى قوله تعالى ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ (يونس : ٩٢) .

والآية معجزة ، كما فى قوله تعالى عن مريم ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ٩١) ، وقوله فى خلق عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ (مريم : ٢١) .

وفى كل المعانى السابقة للآية ، فإن الغرض والغاية منها هو الدلالة على واجدها وقدرته وإبداعه .

فالآية فعل يدل على فاعله ، وخلق يدل على خالقه ، ووجود يدل على واجده فالآية فى الأصل وفى الحقيقة وجود كونى وليست آية وحى أو آية تنزيل ، أى ليست معانى أو أحكام .

شروط إيجاد الآية الكونية

فالمقصود بالآية فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ هو آية كونية ، وليست آية أحكام .

والله – سبحانه وتعالى – لم يقل (ما ننسخ من حكم) ولم يقل (ما ننسخ من حكم آية) ، لأن هناك فرق بين الآية وبين الحكم فى شىء واحد على الأقل وهو القدرة والإقتدار .

فشروط إيجاد الآية وتحققها فى الواقع الخارجى ثلاثة شروط :

١ ـ العلم ٢ ـ الحكمة ٣ ـ القدرة .

العلم هو الجانب النظرى الذى يختص بمعرفة عناصر الآية الكونية وعلاقات الترابط بين هذه العناصر واتفاقها مع بعضها وانسجامها وعدم تنافرها أو اضطرابها .

أما الحكمة : فهى معرفة الوظيفة التى من أجلها سيتم إيجاد الآية وخلقها .

فالحكمة هى التطبيق العملى للعلم .

أما القدرة فبدونها لا يتحقق العلم فى الواقع الخارجى ، فإن لم تكن هناك قدرة ، يظل العلم مكنونا فى عالم الغيب . فإذا وُجدت القدرة ، تحقق العلم فى الواقع الخارجى ، ووجدت الآية .

والقدرة تحتوى على العلم والحكمة ، وليس العلم ولا الحكمة يحتويان على القدرة .

فإذا ذُكرت القدرة فى آيات الله وجدنا أنها تشتمل على العلم والحكمة .

والقدرة تُذكر فى الآيات التى تتحدث عن القوة والقهر والخلق والإيجاد والإبداع ، وتُذكر عموما دلالةً عل الإقتدار على أى شىء ، ومن ذلك أقواله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ (الأنعام : ٦٥) ، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ (يس : ٨١) ، ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة : ١٢٠) ، ﴿ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النور : ٤٥) ، ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (النحل : ٧٧) ، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (الأحقاف : ٣٣) .

فالآيات التى تتحدث عن القدرة والخلق والإبداع والإيجاد يأتى فيها ألفاظ تدل على القدرة والقوة والإقتدار .

وكما قلنا من قبل أن القدرة تتضمن العلم والحكمة .

وأما الحكم فإنه يختلف عن الآية .

فالآية وجود كونى مستقل ، أما الحكم ، فسوف نتعرف عليه فى لسان العرب [الحَكَم والحكيم وهما بمعنى الحاكم : هو الذى يُحكم الأشياء ويتقنها .

وقيل : الحكيم : ذو الحكمة ، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

والحكم والحكمة من العلم ، والحكيم : العالم وصاحب الحكمة .

والحُكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل .

وفى الحديث فى صفة القرآن : وهو الذكر الحكيم ، أى الحاكم لكم وعليكم ، أو هو المحكَم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب .

والحكمة : العدل ، وأحكم الأمر : أتقنه .

وحكم الشىء وأحكمه ، كلاهما : منعه من الفساد .] (١)

وكل المعانى التى جاءت فى مادة (حَكَم) ، مترابطة ومتماسكة مع بعضها .

فالحكيم : هو الذى يُحكم الأشياء ويتقنها ، ولا يستطيع ذلك إلا عن علم .

فتحصيله للعلم هو الذى يجعله يعلم أفضل وضع للشىء .

---

(١) السابق مادة : حكم .

فهو يضع الشيء المناسب فى المكان المناسب ، وهذا لا يتأتى إلا بعلمه عن الشيء وبعلمه عن المكان ، فإذا وُضع الشيء المناسب فى المكان المناسب فقد قضى بالعدل بين الأشياء .

فإذا كان حكيما ، كان عليما أيضا . وإذا كان كذلك ، فإنه لا اختلاف ولا اضطراب فى حكمه .

إذاً ، فمن شروط الحكيم أو صفاته أن لا يكون فى أحكامه اختلاف ولا اضطراب بل فيها إحكام وإتقان ، لأنه عليم .

لذلك فإننا سنجد أن الآيات التى تتحدث عن الأحكام أو الحدود أو الفروض ، سنجد أنها تنتهى بقوله عليم حكيم .

فمن الآيات التى تدل على الإحكام والإتقان ، قوله تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج : ٥٢) ، وفى الحكم يقول تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الممتحنة : ١٠) ، وفى الفرائض يقول تعالى ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ٦٠) ، وبعد ذكر أحكام الميراث يقول تعالى ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ١١) ، وقوله تعالى ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ٢٤) ، وقوله تعالى ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (التحريم : ٢) ، وقوله تعالى ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء : ٩٢) ، ومن الآيات التى تدل على العلم والحكمة ، قوله تعالى ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(التوبة : ٩٧) .

مما سبق يتبين لنا أن الآيات التى تتحدث عن الفرائض والأحكام والحدود والإتقان والإحكام ، تنتهى بكلمتى العلم والحكمة .

وهذا يدل على أن الله لا يغير أحكامه ولا يبدلها ، لأن من الحكمة والعلم والإحكام أن لا يكون اختلاف أو اضطراب فى الأحكام .

التخليط بين الآية فى الوحى والآية فى الإصلاح

من المفاهيم الخاطئة التى بنى عليها القائلون بالنسخ رأيهم ، ظنهم أن كلمة (آية) المذكورة فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ المقصود بها آية من آيات المصحف الشريف .

أى أنهم ظنوا أن كلمة (آية) المذكورة هى التى توجد بين علامتين فى المصحف .

وبالطبع ليس ذلك هو المقصود ، لأن الآية الموضوعة بين علامتين فى المصحف الشريف هو (اصطلاح) من وضع العلماء .

لأننا كما قلنا من قبل ، أنه لما استقرأنا كتاب الله ـ مادة (آية) ـ وجدنا أن كلمة (آية) إذا جاءت مفردة فإنها لا تعنى إلا الآية الكونية ، وليس الآية المتلوَّة فى المصحف .

كذلك فإن هناك آيات فردية فى المصحف ولكنها تحتوى على آيات كونية كثيرة ، مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ١٦٤) .

فهذه الآية المفردة (فى الإصطلاح) تشتمل على مالا حصر له من الآيات : فالسماوات وما فيهن آيات لا حصر لها ، والأرض وما فيها آيات لا حصر لها واختلاف الليل والنهار آيتان ، والفلك آيات ، والبحر آية ، وما فيه آيات ، والسماء وما فيها من كواكب ونجوم ومجرات آيات لا حصر لها ، وإحياء الأرض بعد موتها آية ، وإنزال الماء آية ، والخلق الذى خلقه الله على الأرض آيات لا حصر لها ، وتصريف الرياح آية ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض آية ، فهل كل هذه الآيات الكونية آية واحدة؟

فماذا لو تم نسخ هذه الآية وإبطالها ؟

أليس ذلك معناه إبطال خلق الله وإبداعه وإنكار قدرته ؟

نعم ، إن من قواعد النسخ أن يكون النسخ فى الأحكام فقط ، وليس فى الأخبار أو الوعد والوعيد ...إلخ

ولكننا رأينا أن القائلين بالنسخ تعدوا قواعدهم وتجاوزوها وقالوا بنسخ آيات هى من الأخبار وليست من الأحكام .

فكما رأينا فى الفصل الخاص بمناقشة الآيات المنسوخة (الفصل الرابع) ، أنهم ادَّعوا نسخ قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ١١٥) .

كما ادعوا نسخ قوله تعالى ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة : ٢٨٤)

فهل يصح للقائلين بالنسخ أن ينسخوا قولا مثل ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ ﴾ ، أو قولا مثل ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ ؟

أليست هذه حقائق متحققة لله فى الوجود ، فهو له ملك كل شىء ؟

أليس المشرق آية ، والمغرب آية ، والسماوات والأرض آيات كونية ، إذاً ، فكيف يصح لهم أن يقولوا أن هذه الآيات منسوخة ؟

فالمقصود من كلمة (آية) هو الآية الكونية وليس الآية كماهى فى الإصطلاح .

والآية الكونية لها وجود أسبق من وجود الآية المصطلح عليها ، كما أن الله لا يبدل كلماته التى أوحاها إلى رسوله ولا يُغيرها كما قال تعالى ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ ، وكما قال تعالى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

العنصر الثانى : الإنساء

العنصر الثانى من عناصر آية النسخ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ هو كلمة ﴿ نُنسِهَا ﴾ فما هو المقصود بالإنساء ؟

فى لسان العرب [النسيان : ضد الذكر والحفظ . وقوله عز وجل ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ قال ثعلب : لا ينسى الله عز وجل ، وإنما معناه : تركوا الله فتركهم .

وفى التهذيب : أى تركوا أمر الله فتركهم من رحمته .

وقوله تعالى ﴿ فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ أى تركتها ، فكذلك تُترك فى النار .

وقوله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ ﴾ معناه أيضا : ترك ، لأن الناسِى لا يؤاخذ بنسيانه .

وقوله عز وجل ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى نأمركم بتركها .

وقال بعضهم ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ من النسيان ، وقال : دليلنا على ذلك قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأعلى) ، فقد أعلم الله أنه يشاء أن يُنسى .

قال أبو اسحاق : هذا القول عندى غير جائز ، لأن الله تعالى قد أنبأ النبى ـ ﷺ ـ فى قوله ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أنه لا يشاء أن يذهب بما أوحى به إلى النبى ـ ﷺ ـ قال : وقوله ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ ، أى : فلست تترك إلا ما شاء الله أن تترك] [1]

وقد أورد الإمام الطبرى أحاديث فى معنى ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ، ونقل حديثا عن الحسن البصرى ، يقول فى قوله ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ قال : إن نبيكم أُقرىء قرآنا ، ثم نسيه فلم يكن شيئاً ومن القرآن ما قد نُسخ وأنتم تقرأونه .

وعن قتادة قال : كان نسخ الآية بالآية بعدها ، ويقرأ نبى الله ـ ﷺ ـ الآية أو أكثر من ذلك ، ثم تُنسى وترفع .

وعنه أيضا قال : كان الله تعالى ذكره ، يُنسىٌ نبيه ـ ﷺ ـ ما شاء وينسخ ما شاء .

وهناك حديث لسعد بن أبى وقاص ، أنه كان يقرأ (ما ننسخ من آية أو تَنْسَها) يامحمد ، ثم يقرأ ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ ، (أى أن النسيان كان من الرسول ـ ﷺ) .

وهناك معنى منسوب لابن عباس فى قوله ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ، يقول : أو نتركها لا نبدلها .] [2]

ونجد من الأقوال السابقة ، أن هناك نوعين من النسيان : نسيان بفعل الله ؛ أى أن الله يُجرى النسيان على رسوله ـ ﷺ ـ فينسى بعض الآيات وهناك نسيان صادر عن الرسول نفسه .

فإذا كانت الكلمة ﴿ نُنسِهَا ﴾ بضم النون ، فإن هذا هو فعل الإنساء الصادر من الله ، وجارٍ على رسوله ـ ﷺ .

وإذا كانت الكلمة (تَنْسها) بفتح التاء ـ وهى قراءة لسعد بن أبى وقاص ـ فيكون النسيان هنا من رسول الله ـ ﷺ ـ ويكون ذلك طبعا بسبب ضعف القوى الذهنية وخصوصا الذاكرة !

---

(١) السابق مادة : نسى .

(٢) الطبرى جـ١ صـ٦٩٧ .

ونقول : إذا كان الإنساء من الله لرسوله ، فلماذا أنزل الله على رسوله آيات ثم أنساها له مرة أخرى ؟

وإذا كان الرسول كان قد أقرأها لأصحابه ، وحفظها بعضهم ، فهل أجرى الله النسيان أيضا عليهم ؟

يقول الإمام الطبرى : [وقد أنكر قوم قراءة من قرأ (أو تَنْسَهَا) ـ بتاء مفتوحة ـ إذا عنى بها النسيان ، وقالوا : غير جائز أن يكون رسول الله ـ ﷺ ـ نَسِىَ من القرآن شيئاً مما لم يُنسخ ، إلا أن يكون نسى منه شيئا ثم ذكره ... فإن لو نسى منه شيئا ، لم يكن الذين قرأوه وحفظوه من أصحابه ، بجائز على جميعهم أن ينسوه .

قالوا : وفى قوله عز وجل ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (الإسراء : ٨٦) ما يُنبىء عن أن الله تعالى ذكره ، لم يُنسىِّ نبيَّه شيئا مما أتاه من العلم] (١)

ولكن الإمام الطبرى لا يُقر هذا الإنكار بالنسيان ، ويقول بأن النسيان يمكن وقوعه ، فيقول : غير مستحيل فى فطرة ذى عقل صحيح ... أن يُنسِّى الله نبيَّه ـ ﷺ ـ بعض ما قد كان أنزله إليه .

وأما قوله ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ، فإنه جلَّ ثناؤه لم يُخبر أنه لا يذهب بشىء منه ، وإنما أنه لو شاء لذهب بجميعه ، فلم يذهب به والحمد لله ، بل إنما ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه ، وذلك أن ما نسخ منه ، فلا حاجة بالعباد إليه .

وقد قال تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأعلى) فأخبر أنه يُنسِّى نبيَّه منه ما شاء ، فالذى ذهب منه ، الذى استثناه الله ... فلا إنكار أن يكون الله تعالى ذكره قد كان أنسى نبيه بعض ما نسخ من وحيه إليه وتنزيله] (٢)

وإذا كان الإمام الطبرى لا ينكر وقوع النسيان ، وإنما يقرره ، فإننا نتساءل لماذا أنزل الله آيات من كتابه ثم نسخها أو أنساها لنبيه ؟

أليس هذا تشكيكا فى علم الله وحكمته ؟

وإذا كان الرسول قد قرأ هذه الآيات على أصحابه وكذلك على المشركين والكفار وكانوا جميعا قد حفظوا هذه الآيات ، ثم أنكرها الرسول ـ لأنه نسيها ـ فقال : أنا لم أقل هذا ، أليس ذلك تشكيكا فى صدق الرسول وأمانته ؟

---

(١) السابق صـ٧٠٠ .

(٢) نفسه .

ويقول الإمام محمد عبده [وقالوا أن المراد بالإنساء ، إزالة الآية من ذاكرة النبى ـ ﷺ ـ وقد اختُلف فى هذا : أيكون بعد التبليغ أم قبلة ؟

فقيل بعده ، كما ورد فى أصحاب بئر معونة .

وقيل : قبله ، حتى أن السيوطى روى فى أسباب النزول ، أن الآية كانت تنزل على النبى ـ ﷺ ـ ليلا ، فينساها نهاراً ، فحزن لذلك ، فنزلت الآية ، أى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ .

قال الأستاذ الإمام : ولا شك عندى أن هذه الآية مكذوبة ، وأن مثل هذا النسيان محال على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأنهم معصومون فى التبليغ .] (١)

وموضوع الإنساء ـ هذا يوحى بأن الله مخادع لعباده ، فبعد أن ينزل عليهم الوحى أو العلم ، يغيبهم عن الوعى ، ويسحب منهم العلم ، ويرفع عنهم الوحى الذى أنزل ـ (سبحانه وتعالى عن هذا) .

وهذا غير صحيح ، إذْ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أول ما أنزل من الوحى كان ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ ، وهى دعوة إلى التعلم وطلب العلم ، كما أنه ـ سبحانه ـ طلب من النبى ـ ﷺ ـ أن يستزيد من العلم ، فقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ ، كما أن الله ـ سبحانه ـ يعيب على الذين هم ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ ويعيب على الذين لا يفقهون ولا يعلمون ولا يشعرون ولا يذكرون ولا يتفكرون ، فكيف يعيب عليهم أنهم لا يستخدمون أدوات الإدراك فى تحصيل العلم ، ثم يسلبهم أدوات الإدراك أو يُنسيهم ما حصَّلوا من العلم ؟ !

ثم إن الرسول كان يتعجل الوحى لتحصيل العلم ، فيقول سبحانه ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٤) فكيف يتعجل الرسول الوحى ويشتاق إليه ويتعشق تحصيله ، ثم يسلبه الله الوحى مرة أخرى ؟

ثم إن الإنساء يتنافى مع قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) فمن ضمن أسماء الوحى (الذكر) والذكر ضد النسيان ، بل إن وظيفة الذكر هو التذكير ، وليس الإنساء .

---

(١) المنار جـ١ صـ٣٤٢ .

ووظيفة الرسول ناشئة من وظيفة الوحى وهى التذكير ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية : ٢١) ، والأمر بالتذكير ، ومنزل الذكر ، هو الله ـ سبحانه ـ فكيف يأمر بالتذكير ، ثم يُجرى ـ بقوته ـ الإنساء على عباده الذين أراد لهم أن يتذكروا ، وأن يعوا ويفهموا ويتدبروا ما أنزل إليهم ؟

وإذا كان الإنساء بمعنى النسيان ، فإن الله لا يؤاخذ الناس على هذا النسيان ما داموا غير متعمدين ، بل هو عفواً ورغماً عنهم ، كما قال تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، وكما قال تعالى ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾ (الكهف : ٧٣) ، وقوله تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (الكهف : ٢٤) .

فالنسيان فى الآيات السابقة هو النسيان العفوى ، الذى لا إرادة للإنسان فيه ، وهذا هوالنسيان الذى يعفو الله عنه .

أما النسيان المتعمد ، فهو الذى يكون بمعنى الترك ، لأنه يعرف وجود الشىء إلا أنه يتركه ويهمله ، مثل قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ ﴾ (طه) وقوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ (البقرة : ٤٤) ، أى وتتركون أنفسكم لا تأمرونها بالبر .

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ (الأعراف : ١٦٥) وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ ﴾ (الكهف : ٥٧) .

فالنسيان العفوى لا يؤاخذ الله الناس عليه ، أما النسيان المتعمد فيكون بمعنى الترك والإهمال ، وهذا هو الذى يؤاخذ الله الناس عليه .

وإذا كان النسيان العفوى يأتى الإنسان رغما عنه ، ولا يدرى به ولا يتحكم فيه ، فهل يُعقل أن يقول الله لنبيه ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ ويكون المقصود هنا هو النسيان الذى ضد التذكر ؟

لا شك أن الرسول كان من أكثر الناس حياةً للقلب وأقواهم شعورا وذاكرة وإحساساً، ذلك أن الله شرح له صدره ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وزكاه وطهره وعصمه من الشيطان وأعده منذ صغره لاستقبال الوحى فكانت حادثة شق الصدر إعدادا وتجهيزا لاستقبال الوحى ، فلا يكون للشيطان ولا للنسيان إليه سبيل .

إذاً ، فالمقصود بالنسيان فى قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ أى لا تترك مما أقرأناك إلا ما شاء الله .

أى بلِّغ ما أقرأك الله وأعلمك إلا ما شاء الله مما لا يريد أن تبلغه للناس .

والإقراء هنا بمعنى الإعلام والتعليم ؛ أى سنعلمك فلا تترك مما علمناك شيئا لا تبلغه وتعلمه للناس ، إلا ما شاء الله .

فلا شك أن هناك علما اختص الله به نبيه دون الناس ، وليس كل علم يتعلمه النبى ينبغى عليه أن يعلمه للناس ، لا ، ليس كذلك ، فإن هناك علوماً لا يستطيع الناس أن يتقبلوها أو تتحملها أنفسهم ، بل إنها تكون لعلوها عليهم ـ تكون ضررا عليهم .

فالمستثنى فى هذه الآية ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ هو العلم الذى لا ينبغى لعامة الناس أن يعرفوه ، لأنهم غير مؤهلين لتحمله ، فإما أن يلهوا عنه ويتركوه ، وإما أن يضرهم ويتهموا النبى بالجنون ، وذلك لعدم قدرتهم على تحمل هذا العلم .

إذاً ، فالمقصود بالإنساء فى قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ هو الترك أى ، فلا تترك ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

ولو كان النسيان فى هذه الآية بمعنى السهو والغفلة ، لما قال الله له ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ، لأن معنى ذلك أن الله يتدخل بقوته فينسيه ما يشاء ، فإذا كان الله ينسيه ما يشاء ، فلماذا ذكَّره وعلمه وأقرأه أصلا ؟

إذا كان هناك علم سينسيه الله لنبيه بعد أن يعلمه إياه ، فلماذا علَّمه الله ـ أصلا ـ هذا العلم ؟ لماذا لم يحجبه عنه من الأصل ، بدلا من أن يعلمه ثم يسلبه ما علمه مرة أخرى ؟ وهل هذا يليق بحكيم ؟

إذاً ، فالإنساء هنا هو الترك ، وهو أمر وتنبيه للرسول بأن لا يترك شيئا لا يبلغه للناس، بل عليه بتبليغ ما أمره الله .

وهذه هى وظيفة الرسول ، وكما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (المائدة : ٦٧) .

ونحن ننكر أن يكون الرسول قد نسى شيئاً مما أنزله الله عليه ، وذلك للأسباب التالية :

١ ـ أن الوحى نزل على قلب الرسول ؛ أى أنه مطبوع فى قلبه ، لذلك فإنه لا يمكن للرسول أن ينسى ، خصوصا وأن الله أعدَّ قلبه وتعهده بالتجهيز والتطهير إستعدادا لاستقبال الوحى ، فعصمه الله من النسيان والغفلة والشيطان .

والله ـ سبحانه ـ يقول لرسوله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٥) .

٢ ـ إن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يتدارس القرآن مع النبى باستمرار ، وليست هذه المدارسة للتذكير بما نسيه الرسول ، ولكن للتعليم ، ولترتيب المصحف .

٣ ـ أن الله تعهد بحفظ كتابه فقال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) ومن هذا الحفظ أن لا يُنسى منه شىء .

٤ ـ كيف يؤتى الله نبيه علما ، ثم ينزعه منه ؟ وهذا يتعارض مع قوله تعالى ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ (الإسراء : ١٠٦) وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان : ٣٢) ، وكل ذلك يدعو إلى تثبيت وتمكين الوحى فى قلب الرسول . وقوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية : ٢١) ، والمذكِّر لا بد أن ينتفى عنه النسيان .

٥ ـ قوله ـ ﷺ ـ (ألا هل بلَّغت ، اللهم فاشهد) يعنى أنه بلَّغ ما أمره الله به ، ولم ينس شيئاً .

وإذا كنا قد عرفنا أن النسيان فى اللغة وفى كتاب الله نوعان :

نسيان بمعنى السهو والغفلة وهو الذى لا يؤاخذ الله به الناس ـ ونسيان بمعنى الترك والإهمال وعدم العناية والرعاية .

فما هو المقصود بالإنساء فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ هل هو السهو والغفلة ؟ تعالى الله عن ذلك .

هل هو بمعنى الترك والإهمال وعدم العناية ؟ تعالى الله عن ذلك .

إذاً ، فالمقصود من الإنساء هنا هو الترك بمعنى التثبيت وعدم التغيير أو التبديل .

إذاً ، المقصود من قوله تعالى ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى نتركها ثابتة كما هى لا نبد لها ولا ننسخها .

العنصر الثالث : النسخ

تطبيق معانى النسخ فى اللغة على الآية المتلوة .

فى الفصل الأول من هذا البحث ، تعرضنا لمعرفة معنى النسخ فى لغة العرب ، وقد وجدنا أن للنسخ أربعة معان :

١ ـ النسخ بمعنى النقل : نقل الشىء من مكان إلى مكان وهو هو . وعلمنا أن النسخ ذُكر فى كتاب الله فى أربع آيات . وأن النسخ بمعنى النقل لم ينطبق إلا على آيتين ، هما ، قوله تعالى ﴿ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجاثية : ٢٩) ، وقوله تعالى ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ (الأعراف : ١٥٤) .

٢ ـ النسخ بمعنى الإبطال : إبطال الشىء وإقامة آخر مقامه . وقد وجدنا أن الإبطال لا يكون إلا لما هو باطل ، لذلك فإن هذا المعنى لم ينطبق إلا على قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ (الحج : ٥٢) فالنسخ فى هذه الآية معناه الإبطال ، لأن ما يلقيه الشيطان هو الباطل ، فيكون نسخه هو إبطاله : أى إزهاقه وجعله ضياعا وخسراناً .

٣ ـ النسخ بمعنى التبديل : تبديل الشىء من الشىء وهو غيره .

٤ ـ النسخ بمعنى الإزالة : الشىء ينسخ الشىء نسخا ، أى يزيله ويكون مكانه .

ولم يتبق من الآيات الأربع إلا آية واحدة ، هى آية مشكلة هذا البحث وهى الآية التى يستند عليها القائلون بالنسخ فى دعواهم ، وهى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ (البقرة : ١٠٦) .

فأى معنى من المعانى السابقة للنسخ سيكون هو المقصود فى هذه الآية؟

وقبل أن نحاول معرفة ذلك ، علينا أن نتذكر جيدا ، أن النسخ فى اصطلاح القائلين به، معناه : الإبطال ؛ إبطال الحكم الأول وإعمال الحكم الثانى .

والآن سوف نقوم بتطبيق معانى النسخ الأربعة التى تعرفنا عليها فى لغة العرب على كلمة (آية) ، عندما تكون هذه الآية ، المقصود بها هو (الآية المتلوَّة) أى الآية التى بين علامتين فى المصحف الشريف ، سواء كانت هذه الآية آية عامة ، أو آية حكم .

١ ـ ولنبدأ بالمعنى الأول ، وهو النسخ بمعنى النقل : أى نقل الشىء من مكان إلى مكان وهو هو .

ونسأل أنفسنا هذا السؤال : هل يصح نقل الآية المتلوَّة من مكان فى المصحف إلى مكان آخر ، ما دامت هى هى لم يتغير فيها شىء ؟

والجواب : أنه ما دامت الآية كما هى ، ومستقلة فى المعنى بذاتها وتكتمل بذاتها ولا يحدث فيها لبس أو غموض فإن هذا لن يؤثر فيها .

ولكننا ليس لنا أن ننقل أو نغير فى مواقع الآية . فقد وَصَلَنا كتاب الله على هذه الصورة، وحفظه لنا بهذا الترتيب .

٢ ـ المعنى الثانى للنسخ ، وهو النسخ بمعنى الإبطال : أى إبطال الشىء وإقامة آخر مقامه .

ونسأل أنفسنا هذا السؤال : هل يصح إبطال آية من آيات كتاب الله ، مع العلم بأن فعل الإبطال يتم مع ما هو باطل ؟

فهل كانت الآية التى يُدَّعى أنها نُسخت ، هل كانت باطلا من عند الله ؟

هل أنزل الله آيات ، ثم بعد فترة من الزمن ، وجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنها باطلة ؟

بالطبع هذا منكور ومرفوض . بل إن الله ذاته يصف كتابه بقوله ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت ٤٢) وكفى بهذه الآية شاهدا على أنه كتاب الله ليس فيه باطلا ، بل هو تنزيل من الحكيم الذى أحكم كل شىء .

٣ ـ المعنى الثالث للنسخ ، وهو النسخ بمعنى التبديل .

ونسأل أنفسنا هذا السؤال : هل يصح تبديل آيات الله ؟

ويجيب الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيقول ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ (ق : ٢٩)

ويقول تعالى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس : ٦٤) ، بل إنه تعالى يقول ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ (الروم : ٣٠) ، وقوله تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ (الأنعام : ١١٥) . ويكفينا شهادة بآخر آية من الآيات السابقة ، التى تعنى أن الله أتم كلمته وأحكمها وأتقنها ، وأنه لا مبدل لما أحكم وأتقن .

إذاً ، فالنسخ بمعنى الإبدال لا يصح ولا ينطبق على الآية المتلوة .

ولنلاحظ فى الآيات السابقة أنه ذكرت كلمة ﴿ٱلْقَوْل﴾ وذكرت (كلمات الله) ولا شك أن هذه التعبيرات تنطبق على الآية المتلوة . فالآيات المتلوه هى قول الله وكلماته .

٤ ـ المعنى الرابع للنسخ ، وهو النسخ بمعنى الإزالة : أى الشىء ينسخ الشىء نسخاً ، أى يزيله ويكون مكانه .

ونجد أن هذا المعنى مطابقا لمعنى الإبدال أو التبديل ، وبالتالى فإن هذا المعنى لا ينطبق على الآية المتلوة .

وبالرجوع إلى المعانى الأربعة السابقة بعد تطبيقها على الآية بمعنى آية متلوة ، وجدنا الآتى :

أن النسخ بمعنى النقل يصح مع الآية المتلوة إلا أن ذلك ليس من شأننا ، بل هو من شأن صاحب الكتاب ومنزله سبحانه وتعالى ، وليس لنا أن ننقل آية من مكانها إلى مكان آخر .

أما فى المعانى الثلاثة الباقية ، وهى الإبطال والتبديل والإزالة ، فإنها لا تصح مطلقا .

وعلى العموم : فإن المعانى الأربعة للنسخ فى اللغة لم تنطبق على الآية المتلوة .

تطبيق معانى النسخ فى اللغة على الآية (الكونية)

عرفنا فيما سبق أن (الآية) هى الأثر الدال على الفاعل ، وأن الآية الكونية هى صنعة الله الدالة على فعله وعلى وجوده .

وأن الآية الكونية هى آية مرئية حسية مشاهدة ، يشاهدها الناس ، فيعرفون قدرة الخالق ويستدلون بها عليه .

وبدون الآية الكونية ، لا يُستدل على الخالق . فالآية الكونية هى الدليل على وجود الله.

وسوف نقوم بتطبيق معانى النسخ اللغوية على الآية الكونية ، لكى نتعرف إن كانت هذه المعانى تصح عند تطبيقها على الآية الكونية ، أم لا .

١ ـ لنبدأ بالمعنى الأول للنسخ ، وهو النسخ بمعنى النقل : أى نقل الشىء من مكان إلى مكان وهو هو .

ونسأل أنفسنا هذا السؤال : هل يصح نقل آية كونية من مكان إلى مكان دون أن تتغير هذه الآية فى ذاتها ؟

مثال على ذلك : الشجرة آية كونية ، فهل يمكن نقلها من هذه التربة إلى تربة أخرى ؟

مثال آخر : هذا الهرم آية كونية ، فهل يمكن نقل هذا الهرم من موضعه إلى موضع آخر؟ نعم : بالقدرة والعلم .

مثال ثالث : هذه السيارة آية كونية ، فهل يمكن نقلها من هذه المدينة إلى مدينة أخرى ؟ نعم : بالقدرة والعلم .

مثال رابع : هذا الكوكب آية كونية ، فهل يمكن انتقاله من مكانه إلى مكان آخر ويظل كما هو فى ذاته ؟ نعم بالقدرة والعلم .

إذاً ، فالنسخ بمعنى النقل ينطبق على الآية الكونية .

٢ ـ المعنى الثانى للنسخ وهو النسخ بمعنى الإبطال : أى إبطال الشىء وإقامة آخر مقامه .

وقد عرفنا فيما سبق أن النسخ بمعنى الإبطال لا يكون إلا مع ما هو باطل فهل الآية الكونية ـ صنع الله ـ هل هى باطل ؟

هل خَلَق الله باطلا ؟ هل خلق الله خلقاً ثم وجد أنه باطل ؟

إذا كان الإبطال هو المحْق والإزهاق والضياع والخسران ، فيمكن محق الآية الكونية بالقدرة والإختيار ومحوها ، ولكن ليس على أنها باطل ، ولكن لتدخل الإرادة والمشيئة فى إيجاد شىء وإعدام شىء ، وليس لأنه اتضح أن آية الله أصبحت باطلا .

أى أن النسخ بمعنى الإبطال لم يستعمل إلا فيما هو باطل ، كما رأينا فى قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ (الحج : ٥٢) .

وعرفنا قبل ذلك ـ فى اللغة ـ أن الشيطان هو الباطل ، وأن ما يلقيه الشيطان هو الباطل، فيكون نسخه هو إبطاله .

أى أن النسخ بمعنى الإبطال لا يكون إلا مع ما هو باطل .

فهل آيات الله الكونية باطلة ؟

يقول تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ (ص : ٢٧) .

ويقول الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران) .

وكفى بآيات الله شاهداً ، وكفى بها تبيانا .

٣ ـ المعنى الثالث للنسخ هو النسخ بمعنى التبديل ، أى تبديل شىء مكان شىء .

وعلينا أن نذكر أن النسخ فى آية النسخ (البقرة : ١٠٦) هو قدرة الله ، وليست لنا ؛ أى أنه فعل يتم حسب إرادة ومشيئة الله ، وبقدرته وليس فعلا لنا نحن .

ونسأل أنفسنا هذا السؤال : هل يصح لله أن يبدل آية كونية مكان آية كونية أخرى ؟ هل يستطيع الله ذلك ؟

سبحان الله ! نعم يستطيع ، فالملك ملكه ، والخلق خلقه ، يقول تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران : ١٨٩) .

٤ ـ المعنى الرابع للنسخ ، وهو النسخ بمعنى الإزالة أى : الشىء ينسخ الشىء نسخاً ، أى يزيله ويكون مكانه .

وعرفنا فيما سبق أن الإزالة ليست معناها النفى والإعدام ، ولكنها تعنى التحريك ، كما يقول تعالى ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ (إبراهيم : ٤٦) أى تتحرك الجبال الرواسى الراسخة .

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (فاطر : ٤١) . فزوال السماوات والأرض هنا هو حركتهما ، والدليل على ذلك قوله ﴿ أَمْسَكَهُمَا ﴾ .

إذاً ، فالنسخ بمعنى الإزالة هو التحريك .

فهل يصح لله أن يحرك آية كونية بآية كونية أخرى ؟

إن هذا الفعل ؛ فعل الإزالة ، موجود ومتحقق فى الوجود .

فالعلاقة بين النهار والليل هى علاقة إزالة ، لأن الإزالة هى التحريك والإزاحة فالنهار يزيح الليل ويزيله ويحركه ليأخذ مكانه ، فى الوقت نفسه يأخذ الليل المكان الذى تركه النهار ، فى دورة أبدية .

وهى نفس العلاقة التى بين الشمس والظل ، فالشمس تحرك الظل وتزيله من مكانه وتحل محله ، فى الوقت الذى يحل فيه الظل محل الشمس المتروك .

وعلينا أن نتنبه إلى أن النسخ هو فعل لله ، يعتمد على إرادته ومشيئته وقدرته وتصرفه فى ملكه .

وقد رأينا أن المعانى الثلاثة للنسخ قد تحققت وانطبقت على الآية الكونية ما عدا النسخ بمعنى الإبطال .

وذلك لأن النسخ بمعنى الإبطال لم يستخدم إلا فى إبطال ما هو باطل .

والباطل من فعل الشيطان .

وحيث أن خلق الله ليس باطلا ، كما قال تعالى ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا ﴾ ، إذاً ، فالنسخ بمعنى الإبطال لايصح استعماله مع الآية الكونية .

والنتائج التى توصلنا إليها فى عمليتى تطبيق معانى النسخ فى اللغة على آية النسخ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ هى :

١ ـ فى حالة النسخ بمعنى النقل ، وفى حالتى الآية المتلوة والآية الكونية فإن المعنى يكون مقبولا ، باعتبار أنه فى حالة الآية المتلوة يكون الله هو المنظم لكتابه ، يضع الآيات كما يشاء ، وليس لنا دخل فى هذا الترتيب أو التنظيم .

وفى حالة الآية الكونية ، فإن لله ملك السماوات والأرض وهو أعلم بملكه وأقدر عليه.

٢ ـ فى حالة النسخ بمعنى الإبطال ، فسواء كان فى حالة الآية المتلوة أو الآية الكونية ، فإن هذا المعنى لم ينطبق عليهما ، وذلك لأنه لا يصح أن يقال أن آية متلوة أصبحت باطلة ، كما أنه لا يصح أن يقال أن خلق الله أصبح باطلا ، وبالتالى فإن النسخ بمعنى الإبطال لم يصح مطلقا ، لا فى كتاب الله ، ولا فى خلق الله .

٣ ـ فى حالة النسخ بمعنى الإبدال ، وجدنا أن الإبدال لا ينطبق على الآية المتلوة ، لأنه ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ ولأنه ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ . أما تبديل الآيات الكونية، فهذا شأن الله وفعله فى خلقه وملكوته .

٤ ـ فى حالة النسخ بمعنى الإزالة ، فإن هذا المعنى لا ينطبق على الآية المتلوَّة ولكن ينطبق على الآية الكونية .

والخلاصة : أن معانى النسخ الأربعة لا تنطبق على الآية المتلوة ، وبالتالى فإنها لا تنطبق على آيات الأحكام ، فى حين أن هذه المعانى تنطبق على الآية الكونية ، ما عدا النسخ بمعنى الإبطال .

وحيث أن النسخ فى مصطلح القائلين به هو : إبطال الحكم السابق وإعمال الحكم اللاحق .

وحيث أن النسخ بمعنى الإبطال لم ينطبق سواء كانت الآية متلوة أو آية كونية . إذاً ، فالنسخ بمعنى الإبطال دعوى باطلة إنهارت أمام الفحص والتحقيق .

اختبار معانى النسخ فى الآية الكونية مع معنى الإنساء

تعرفنا فيما سبق على الإنساء ، ووجدنا أن الإنساء له معنيان : أحدهما بمعنى النسيان ، وهو السهو والغفلة ، وهذا لا يؤاخذ الله عليه الناس كما قال تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ ، وكما قال الرسول ـ ﷺ ـ (رُفع عن أمتى السهو والخطأ والنسيان) .

وثانيهما : الإنساء بمعنى الترك ، ووجدنا أن الترك مذموم حين يتعلق بالوحى والذكر والآيات .

فيقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ ﴾ (الكهف : ٥٧) ، وقوله ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ (طه : ١١٥) ، وقوله ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الأنعام : ٤٤) ، وقوله ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ (المجادلة : ١٩) ، وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (طه) .

فالنسيان هنا بمعنى الترك ، وهو مذموم إذا وقع من العبد فى تعامله مع آيات الله وذكره ووحيه ، لأنه إهمال وعدم رعاية واهتمام بالوحى والذكر .

وإذا كان الترك للآيات وللذكر مذموم ، فمعنى ذلك أن الترك فى الآية ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ ليس مذموما ، لأنه ليس معناه الترك الذى سببه الإهمال وعدم الرعاية والإهتمام ، ولكنه الترك بمعنى : تثبيت الآية على حالها وفى وضعها التى هى فيه .

ولأن هذا الترك هو بمشيئة وإرادة الله .

وهذا دليل آخر على أن كلمة (آية) المقصودة فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ هى الآية الكونية وليست الآية المتلوة .

وذلك لأن الله أقر فى هذه الآية الإنساء بمعنى الترك ، ولكنه لم يحبذه فيما يتعلق بالذكر والوحى وآياته المذكِّرة به ، إذْ أنه ذمَّ الذين أعرضوا عن ذكره وآياته .

إذاً ، فهذا دليل آخر على أن المقصود بكلمة (آية) فى آية النسخ هو الآية الكونية .

والترك المقصود فى الآية ـ كذلك ـ ليس المقصود به الإهمال وعدم الرعاية فالله لا يهمل ملكوته ولا يتركه بدون رعايته ، فهو رب العالمين ، القائم على تربية خلقه ، وهو الحى القيوم القائم على رعاية ملكه .

ولكن الترك فى هذه الآية معناه (التثبيت) ؛ أى ترك الآية الكونية وتثبيتها على حالتها قائمة فى الوجود .

ففى لسان العرب [ثبت فلان فى مكانه ، فهو ثابت : إذا أقام به .

وفى قوله عزل وجل ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ ﴾ (هود ١٢٠) .

قال : تثبيت الفؤاد : تسكين الفؤاد .

ورجل ثَبْتٌ : أى ثابت القلب .

والثَّبات : سيرٌ يُشد به الرحْل .

وفى حديث أبى قتاده : فطعنته ، فأثبته أى : حبسته وجعلته ثابتا فى مكانه لا يفارقه .] [1]

---

(١) لسان العرب ، مادة تثبيت .

إذاً ، فالتثبيت هو جعل الشيء ساكنا ثابتا قائما فى مكانه .

وحيث أن فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ حرف (أو) يفيد أن الإنساء أو الترك سيكون شيئاً مغايراً للنسخ ، وعلينا أن نتعرف بعد ذلك على المقصود بنسخ الآية.

هل النسخ فى هذه الآية معناه النقل ، أم الإبدال ، أم الإزالة (بمعنى التحريك) أم أن جميع هذه المعانى تنطبق على الآية الكونية ؟

سوف ننظر إلى الجدول المبين ، ونحاول معرفة المقصود بالنسخ فى هذه الآية ، وهل هذه المعانى تتفق جميعا ويصح تطبيقها على الآية الكونية ـ فى حالة الأخذ فى الإعتبار أن الإنساء معناه : التثبيت وإدامة إقامة الشيء مكانه ؟ أم أن هناك معنىً واحداً هو الذى يتفق مع الإنساء (التثبيت) ؟

أم أن هناك معنى آخراً مغايراً للمعانى السابقة يكون هو المقصود بالنسخ ؟ الذى سيحدد المعنى المختار هو معرفة الغرض من الإنساء بمعنى التثبيت .

الفعل	وظيفة الفعل	الغرض من الفعل وعلاقة الشيء مع المكان
التثبيت	تثبيت الشيء ذاته	تثبيت الشيء ذاته وإقامته فى نفس المكان
النقل	نقل الشيء ذاته من مكانه لمكان آخر	إختيار مكان جديد للشيء ذاته
الإبدال	إبدال الشيء بدلا عن شيء	إختيار شيء جديد فى نفس مكان الشيء القديم
الإزالة	التحريك	تحريك الشيء من مكانه إلى مكان آخر

بعد النظر فى هذا الجدول ـ آخذين فى الإعتبار علاقة الشيء مع المكان ـ علينا أن نلاحظ الآتى :

١ ـ أن فعلى النقل والإبدال يتضمنان على فعل الإزالة ، لأن النقل يتضمن التحريك ، وكذلك الإبدال يتضمن التحريك ، لذلك ، فسوف نلغى فعل الإزالة لوجوده فى فعلىّ النقل والإبدال .

٢ ـ إذا كان الغرض من التثبيت هوتثبيت الشيء ذاته وإقامته فى نفس المكان ، فإنه من المتوقع ، وإفادةً من حرف (أو) ، أن يكون معنى النسخ فى الآية مقابلا ومغايراً لمعنى الإنساء (التثبيت) تماما . بمعنى تغيير الشيء ذاته وبالتالى تغيير مكانه .

٣ ـ إذا كان التثبيت هو تثبيت الشيء ذاته فى نفس المكان ، فهل النقل ـ كما هو متوقع أن يكون مقابلا ومغايرا للتثبيت ـ هو نقل شيء آخر فى مكان آخر ؟

النقل ليس كذلك ، إذْ هو نقل نفس الشيء إلى مكان آخر ، إذاً ، فلم يتحقق فى النقل أن يكون مقابلا ومغايرا تماما لفعل التثبيت ، بل إن النقل اتفق مع التثبيت فى احتفاظ الشيء بذاته (هُوَ هو) ، إلا أنهما اختلفا فى المكان .

أما فى النقل ، فإن الشيء إحتفظ بذاته (هو هو) ، ولكن مكانه تغير .

فلم تتحقق المقابلة والمغايرة تماما ، ولكنها تحققت فى جزء ولم تتحقق فى الجزء الآخر .

٤ ـ لم يتبق من الأفعال الثلاثة (النقل ـ الإبدال ـ الإزالة) إلا فعل الإبدال فهل الإبدال هو إبدال شيء آخر فى مكان آخر ؟

إذا تدبرنا لوجدنا أننا حين نستبدل شيئا بشيء ، فإننا نرفع الأول القديم ونأتى بالثانى الجديد مكانه .

وفى هذه الحالة لا يهمنا المكان الجديد للشيء الأول المرفوع (المُزال) ، لأن الإرادة والمشيئة متعلقة برفعه والإتيان بجديد مكانه .

ولكن ما هو مكان الشيء ؟

مكان الشيء هو حدوده الذاتية التى تحدد وجوده فى الواقع الخارجى .

فالشيء عندما يخرج إلى الوجود يتحدد مكانه بذاته ؛ أى بحدوده المرسومة المحددة فى الواقع الخارجى .

وأما زمانه : فهو اللحظة التى ابتدأ الشيء فى ابتداء تحدده المكانى .

فزمان الشيء لا ينفك عن مكان الشيء وهما معا يُكَوِّنان الشيء .

إذاً ، فما دام المكان هو الشيء ذاته ، أو مادام الشيء هو ما يملؤه من مكان ، إذاً ، فسوف نلغى المكان وننظر فى الأشياء ذاتها ووجودها فى الواقع الخارجى .

إذْ أن الشيء هو (المكان ـ الزمان) ، أى أن الشيء هو شخوصه فى الوجود ، وكما جاء فى لسان العرب [الآية : العلامة ... وتأيَّا الشيء : تعمد آيته ، أى شخصه ، وآية الرجل : شخصه .] [1]

---

(١) السابق مادة : أيا .

فالشيء آية ، والآية هى تشخصٌ فى الواقع الخارجى .

وبعد أن اتفقنا على أن المكان للشيء هو الشيء ذاته ، فسوف نُلغى المقارنة بين الإنساء والنسخ على أساس الوجود فى مكان ، بل على أساس وجود الشيء ذاته فى الوجود .

فإذا كان الإنساء بمعنى التثبيت هو وجود الشيء وبقائه فى الوجود فمن المتوقع أن يكون النسخ مقابلا ومغايرا للإنساء .

فهل النسخ بمعنى النقل يحتفظ فيه الشيء بوجوده فى الواقع ؟

نعم ، فالنقل هو نقل الشيء ذاته من مكان إلى آخر وهو هو ، أى باق فى الوجود .

فهل النسخ ـ بمعنى الإبدال ـ يحتفظ الشيء بوجوده فى الوجود ؟

نجد أنه إذا أرادت المشيئة أن تستبدل شيئا ، فمعنى ذلك أن الشيء الأول القديم غير مرغوب فيه ، وتريد المشيئة استبداله بشيء آخر ، وهنا نجد أن النسخ بمعنى الإبدال يكون مقابلا ومغايرا تماما لفعل الإنساء بمعنى التثبيت .

إذاً ، فالنسخ هو الإبدال (كما قال ابن عباس)

والإبدال يحتوى على فعلين للمشيئة والإرادة الإلهية

أ ـ رفع أو إعدام أو محو شيء موجود .

ب ـ خلق وإيجاد شيء آخر بدلا من الأول .

وهذا يتفق مع صفة الخالقية لله ، التى من فِعلها : الإيجاد والإعدام والتجديد الدائم فى الوجود .

إذاً ، فقوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ يتفق مع قوله تعالى ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الرعد : ٣٩) فالآيتان متقاربتان جدا فى المعنى ، إن لم تكونا متماثلتين ، فكلتاهما تتحدثان عن الخلق والإعدام والإيجاد والتثبيت .

فآية الرعد تتكلم عن محو الآيات ؛ أى إعدامها وجودها وتتكلم عن تثبيت الآيات كما هى ، وعنده أم الكتاب الذى ينزل منه ـ سبحانه ـ الآيات .

وآية النسخ تتكلم عن النسخ ، وهو كما رأينا عبارة عن فعلين ، هما الإعدام والإيجاد ، كما تتكلم عن الترك والتثبيت (الإنساء) وهو على ذلك قدير .

إذاً ، فالنسخ فى الآية معناه الإبدال . ففى الإبدال يتم رفع شىء والإتيان بشىء آخر بدلا منه ، وهذا يدل على صفة الخالقية . فالخالقية معنية بالإيجاد والإعدام .

العنصر الرابع (الخيرية)

يقول تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ (البقرة :١٠٦) لو كان النسخ هنا هو نسخ أحكام ، وعلمنا أن الوحى قد تم إنزاله ، وكمل الدين ، وخُتمت الرسالة ، ولم تعد هناك رسالة أخرى ، وأُغلق باب الوحى ، وأن كتاب الله (القرآن الكريم) هو الكتاب الخاتم .

وإذا كانت الآية تقول ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ ، وعلمنا أن (ما) شرطية ـ كما قال الإمام الرازى ـ كما أنها تفيد حدوث الشىء فى المستقبل ، بمعنى : إذا حدث ـ فى وقت ما ـ نسخٌ لآية فسوف نأتى بخير منها ، كما أنها تفيد الإستمرار فى عملية النسخ ـ إذا حدثت ـ ونعلم أن الحكم أو الأحكام هو وحى ، وأن الوحى قد تم وأغلق بابه ، فكيف ستتم عملية النسخ المستمرة مرة أخرى ؟ وكيف ستأتينا الأحكام الأخرى الجديدة التى ستكون أكثر خيراً من الأحكام الأولى ؟

وهل يصح فى الأحكام أن نقول : إن هذا الحكم خيراً من ذلك الحكم ؟

وهل يصح أن نقول : إن الله أنزل حكما ، ثم بعد فترة من الزمن ، وَجَد أن هناك حكما أكثر خيرا للناس ، فرفع الحكم الأول ، ثم أنزل الحكم الآخر ؟

وإذا كان يصح ذلك ، فما أدرانا أن الحكم الجديد سوف يأتى عليه الزمان مرة أخرى ، ثم نجد أنه حكم غير نافع للناس ، فيرفعه الله مرة أخرى ، ثم ينزل حكما آخر مرة ثالثة ؟

فإذا كان كتاب الله (القرآن) هو الكتاب الخاتم ، فكيف ستتم عمليات النسخ والتجديد فى الأحكام ؟

ومن هو الذى يحدد خيرية الأحكام ؟ هل الناس ، أم الله ؟

أى ، كيف يستطيع الناس أن يحددوا أن هذا الحكم (الجديد) أكثر خيرا من ذلك الحكم القديم ؟

أليست الأحكام من عند الله العليم الحكيم ؟ وهو الذى يعلم أن ما أنزله من أحكام ، هى أحكم الأحكام للناس فى كل زمان ومكان ؟

إن ما أنزله الله من أحكام هى خير من ضمن الخير العام المتمثل فى الوحى عامة . ومعنى أنها خير ، أى أنها أحكم الأحكام وأتقنها .

والآية التى تسبق آية النسخ مباشرة تقول ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (البقرة : ١٠٥) .

فالخير المذكور فى هذه الآية : هو الوحى عامة ، أى الهداية الإلهية . فليس المقصود بالخير فى هذه الآية هو الطعام والشراب والزروع والأنعام والأموال والأولاد وغير ذلك، فهذه الأشياء يعطيها الله للكفار وللمؤمنين ولا مفاضلة بينهم فى ذلك .

بل إن الخير فى هذه الآية ، هو اختصاص أمة الإسلام بالرسالة الخاتمة .

هو اختصاصهم بالشفاء وبالهداية وبالرحمة ، وهى صفات القرآن .

ويقول تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء : ٨٢)

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء :٩)

ويقول فى صفة هذه الأمة الحاملة للخير والهدى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

فإذا كان الوحى كله هداية ورحمة وشفاء ، ومن صفاته أنه كتاب حكيم ، أى أُحكمت آياته ، ومن آياته : آيات الأحكام ، فكيف سيتم نسخها بعد إحكامها وإتقانها ، أليس هذا ببعيد ؟ !

إذاً ، فالخيرية فى آية النسخ ليست خيرية أحكام عن أحكام ، بل هى خيرية يعلمها الله فى آياته الكونية مما ينفع الناس فى شئونهم الحياتية المعيشية كأن يوجد لهم نوعا من الحيوانات أكثر تناسلا فتزداد عدد الحيوانات المأكولة أو يوجد لهم نوعا من النبات أكثر إنباتا وأكثر محصولا ليتناسب مع زيادة عدد الناس ، أو يُحى أرضا ميتة ، فتصبح خضراء تنبت بالزروع ، أو يفجر من أرض صحراوية ينابيع من الماء ، أو غير ذلك مما هو فى قدرة الله تعالى .

إذا فالخيرية فى الآية ليست خيرية أحكام ، لأن الأحكام ثبتت فى كتاب الله ، ولا يحق نسخها ، لأنها وحى الله الخاتم . بل الخيرية هى فى الآيات الكونية التى ستعم على الناس بالخير اللازم لحياتهم ومعايشتهم .

العنصر الخامس : (المثلية)

إذا اعتبرنا أن النسخ فى الآية (البقرة : ١٠٦) هو نسخ أحكام ، وأنه عندما يتم نسخ الحكم فسوف يأتى حكم آخر مماثل لنفس الحكم المنسوخ ، فما هو الذى تم استفادته من هذا الفعل ؛ إذا كان الحكم الثانى مماثل للحكم الأول المنسوخ ، وما هى الحكمة فى هذا الفعل ؟

إن إبطال حكم فى شىء ما ، ثم الإتيان بحكم مماثل للحكم الأول الذى تم إبطاله فى نفس الشىء ، هو عمل بلا جدوى ولا فائدة ، مادام الحكم هو نفس الحكم ، بل إن هذا شىء يدل على الجهالة والسفاهه وعدم الإقتصاد فى المجهود .

فالمثلية لا تنطبق على الأحكام ؛ لأنها لو انطبقت على الأحكام ، فإنه مع ذلك لن يكون لدينا إلا حكما واحدا ، هو نفس الحكم الأول .

وإبطال الحكم الأول والإتيان بحكم آخر مماثل للحكم الأول ، يعتبر من فضول القول والتخليط والتلبيس على الناس .

إذاً ، فالمثلية ليست مثلية فى آية أحكام ، بل المثلية تنطبق على الآية الكونية .

فالوجود الكونى لا يحدث فيه اختلاف واضطراب إذا تشابهت أو تماثلت بعض الآيات مع بعضها ، بل إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبرنا فى كتابه بتحقق وقوع هذا التشابه والتماثل فى آياته الكونية ، فيقول تعالى ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة : ٧٠) ، فالبقر آيات كونية ، ومنها ما هو متشابه لا يستطيع الرائى أن يُفرق بينها .

وقوله تعالى ﴿ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ﴾ (الأنعام : ١٤١) . فالزيتون والرمان آيات كونية ، وإمكانية التشابه بينها متحقق فى الوجود .

وقوله تعالى ﴿ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ (البقرة : ٢٥) .

فالرزق الذى رزقه أهل الجنة كان متشابها مع ما رزقوه فى الدنيا ؛ أى أن إمكانية التشابه بين الآيات الكونية متحققة فى الوجود ، وبدون وقوع اضطراب ، لأن الآيات الكونية هى للإنتفاع الحياتى والمعيشى للناس .

أما التشابه فى آيات الأحكام أو التماثل فيها ، فإنه يؤدى إلى الإختلاف والإضطراب ، لأن الأحكام وظيفتها تنظيم العلاقات بين الناس فى الحياة ، فإذا اضطربت هذه الأحكام، أدى ذلك إلى اضطراب حركة الحياة بين الناس واختلاف المفاهيم والعلاقات التى تنظم شئون حياتهم ، مما يجعلهم يتخبطون ويضطربون فى تعاملهم مع بعضهم ، وليس هذا من مقاصد المشرع الحكيم .

العنصر السادس : (القدرة)

إذا كان المقصود بالنسخ فى الآية (القرة : ١٠٦) هو نسخ أحكام ، فلماذا لم يقل الله تعالى (ما ننسخ من حكم) بدلا من قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ ؟

وقد عرفنا من قبل أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال فى تفسيره لقوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى (ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها) [١]

فلم يقل : ما نبدل من (حكم) آية ، بل قال : ما نبدل من آية فقط ، ولم يُضف كلمة (حكم) .

وقد عرفنا أيضا أن أول من أضاف كلمة (حكم) إلى كلمة (آية) هو الإمام الطبرى ، وكذلك هو أول من وضع قواعد النسخ فى صورتها الأولية .

وعرفنا من لسان العرب ، أن الحكيم هو الذى يُحكم الأشياء ويتقنها ، وأن الحكيم هو الذى لا يكون فى حكمه اختلاف ولا اضطراب . وأن الحكمة والإحكام هى منع الشىء من الفساد ، فكيف يقال أن حكما لله قد نُسخ وأُبطل ؟

أليس هذا معناه : فساد الحكم الذى أنزله الله ؟

أليس إبطال الحكم ونسخه ، معناه أن المشرع ليس حكيما ، وأن شرعه ملىء بالإختلاف والإضطراب ؟

---

(١) الطبرى جـ١ صـ٦٩٥ .

وإذا كان المقصود بالنسخ فى الآية (البقرة : ١٠٦) هو نسخ أحكام ، فلماذا لم يقل الله ـ سبحانه وتعالى ـ (ما ننسخ من حكم) بدلا من قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ ، ولماذا لم يقل فى ختام الآية (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) ، بدلا من قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ؟

وقد عرفنا من قبل أن آيات الأحكام والفروض والحدود تنتهى أو تختم بما يدل على العلم والحكمة ، كما أن الآيات التى تتحدث عن القوة والقهر والخلق والإيجاد والإعدام والإحياء والإماته تنتهى أو تُختم بما يدل على القدرة مثل قوله ﴿ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أى أن الأحكام تحتاج فى خروجها إلى الواقع الخارجى إلى العلم والحكمة ، وأن الأحكام والحكمة تختص بالجانب العملى التطبيقى بين الناس وبعضهم أو بين الناس وغيرهم من مخلوقات الله ، فى حين أن العلم يختص بالجانب النظرى الذى يختص بمعرفة عناصر الشىء وعلاقات الترابط بين هذه العناصر واتفاقها مع بعضها ، وانسجامها وعدم تنافرها أو اضطرابها .

فإذا كان الحكم يحتاج فى خروجه إلى الواقع الخارجى إلى صفتى العلم والحكمة ، فإن الآية الكونية تحتاج فى خروجها إلى الواقع الخارجى وتحققها فيه ـ بالإضافة إلى صفتى العلم والحكمة ـ تحتاج إلى صفة (القدرة) .

فالعلم والحكمة بالآية الكونية يعتبران الجانب النظرى فى الإلمام بها ، وأما القدرة ، فهى المختصة بإخراج هذه الآية الكونية إلى الواقع الخارجى . فبدون القدرة ، لا يتحقق العلم فى الواقع الخارجى ، فإن لم تكن هناك قدرة مقتدرة على إخراج الشىء من وجوده النظرى إلى الوجود الواقعى ، فإن هذا الشىء أو هذه الآية تظل مكنونة فى عالم الغيب . أما إذا وُجدت القدرة ، فإن العلم بالشىء يتحقق فى الواقع الخارجى ، وتخرج الآية إلى الوجود .

إذاً ، فالقدرة تحتوى على العلم والحكمة ، ولكن الآيات التى تتحدث عن الخلق والإيجاد والإعدام والإحياء والإماته والإبداع تنتهى بمثل قوله ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، لأن القدرة هى آخر مرحلة فى إخراج الآية إلى الواقع الخارجى ، ولأن القدرة تحتوى على العلم والحكمة فى أى شى ، فليست هناك آية كونية ، إلا والعلم والحكمة أساسان لها فى وجودها النظرى ، ثم تأتى القدرة والإقتدار على الآية لإخراجها من وجودها النظرى إلى وجودها الواقعى الخارجى .

فالقدرة تختص بالآيات الكونية التى أبدعها الله كما استدللنا بالآيات التى تتحدث عن الخلق والإبداع .

أى أن المقصود بنسخ الآيات هو النسخ الكونى الوجودى لها ، وليس نسخ الأحكام. فالنسخ الكونى يكون بمعنى الإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماته ، لأن النسخ كما رأينا أنه بمعنى الإبدال ، والإبدال فيه الإذهاب بشىء والإتيان بشىء آخر بدلا منه .

فالنسخ فعل من أفعال الله ، يفعله حسب مشيئته وإرادته ، وهنا الفعل يتأسس على صفة (الخالقية) وعلى اسميْه تعالى (الخالق) و (الخلاق) .

فلأنه ـ تعالى ـ خلاق ، فإنه دائم الإيجاد والتخليق فى الوجود ، ومادام كذلك فإنه دائم الإفناء والتغيير والتبديل كذلك .

والخلق والإبداع ، والإيجاد والإعدام ، والإحياء والإماته ، والإمراض والإشفاء ، كل ذلك يحتاج إلى القدرة والإقتدار ، لذلك فإن الآية أُختتمت بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن كل العمليات السابقة ، هى خاصة بالآية الكونية ، وليس بآيات الأحكام .

الإستشهاد بالسياق لمعرفة المقصود بالنسخ

فى محاولتنا للتعرف على المقصود بكلمة (آية) فى آية النسخ الشهيرة (البقرة : ١٠٦) .

هل هى الآية المتلوة ، أو الآية الكونية ، وجدنا أن لغة العرب دلت على أن الآية هى العلامة أو الأثر الدال على صاحبه ، أى أن الآية فى اللغة هى الشىء المشهود المرئى الذى يدل على فاعله .

كما أنه باستقراء كتاب الله فى مادة (آية) وجدنا أن هذه الكلمة فى صورتها الفردية لم تأت فى كتاب الله إلا ويكون المقصود منها الآية الكونية ، وليس الآية المتلوَّة المصطلح عليها .

وحينما قمنا بتطبيق معانى النسخ فى اللغة على كلمة (آية) حينما تكون آية متلوة ، وعندما تكون آية كونية ، وجدنا أن هذه المعانى لا تنطبق إلا على الآية الكونية دون الآية المتلوة .

وكذلك الإنساء ـ بمعنى الترك والتثبيت ، وليس بمعنى النسيان ـ إنطبق على الآية الكونية دون الآية المتلوة .

وكذلك الخيرية والمثلية لم ينطبقا إلا على الآية الكونية دون الآية المتلوة ، واختتام الآية بما يدل على القدرة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يدل على أن المقصود بكلمة (آية) هو الآية الكونية وليس الآية المتلوة أو آية أحكام .

وكانت كل العمليات السابقة تعتبر محاولة لمعرفة معنى الكلمة فى سياق الآية . إذْ أن السياق من العوامل التى تساعد على فهم المقصود .

إذْ [يرى (ريتشاردز) أن الكلمة لايمكن أن تُفهم إلا من خلال السياق وعلاقتها مع الكلمات الأخرى .

كذلك فإن النغمة الواحدة فى أية قطعة موسيقية لا تستمر شخصيتها ولا خاصيتها المميزة لها إلا من خلال النغمات المجاورة لها . وأن اللون الذى نراه أمامنا فى أية لوحةفنية لا يكتسب صفته سوى من الألوان الأخرى التى تصحبه وتظهر معه . وحجم أى شىء لا يُقدَّر إلا بمقارنته بحجم الأشياء الأخرى .

كذلك الحال فى الألفاظ ، فمعنى أية كلمة لا يمكن أن يتحدد إلا على أساس علاقتها بما يجاورها من ألفاظ] (١)

وفى نظرية النظم عند (عبد القاهر الجرجانى) [فإن المفردة لا تأخذ دلالتها الحقيقية وامتيازها إلا فى سياقها ؛ الذى تتفاعل مع بِنَى التركيب ، ولا قيمة لها خارج هذا السياق .

كما أن الكلمة لا تكتسب معناها الكامل إلا فى سياقها وارتباطها بما قبلها وما بعدها ، ومتى جُردت من سياقها لم يعد لها أى قيمة ، إنما تأخذ قيمتها ودلالتها الحقيقية من خلال التركيب النحوى] (٢)

وإذا كنا قد تعرفنا على معنى كلمة (آية) فى خلال سياق الآية (البقرة : ١٠٦) .

فسوف نقوم الآن بالتعرف على المقصود من كلمة (آية) من خلال سياق الآيات إذْ أن [من الضوابط المهمة فى حسن فهم القرآن ، وصحة تفسيره : مراعاة سياق الآية فى موقعها من السورة ، وسياق الجملة فى موقعها من الآية . فيجب أن تُربط الآية بالسياق الذى وردت فيه ، ولا تقطع عما قبلها وما بعدها] (٣)

---

(١) بلاغة الخطاب د. صلاح فضل ـ صـ ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٢) عالم الفكر ـ العدد ١٦٤ صـ ١٦٩ ـ ١٨٣ سنة ١٩٩٣ .

(٣) كيف نتعامل مع القرآن العظيم صـ ٢٣٨ .

يقول الله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (البقرة)

توصلنا من قبل أن المقصود بكلمة (آية) فى آية النسخ هو الآية الكونية ، ومن ضمن العناصر التى دلت على صحة هذا الفهم هو اختتام الآية بما يدل على القدرة والإقتدار .

ونرى فى الآية التى بعدها ما يدل على هذا الفهم ، وهو قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لتبين لنا أن موضوع النسخ ـ كما عرفنا ـ هو موضوع يختص بالخلق والإبداع والإيجاد والإعدام وبالتخليق المستمر فى الوجود عموما ، وكل هذا موجود فى إطار ٱلسَّمَٰوَٰت وَٱلْأَرْضِ ، وهما بما فيهن آيات كونية ، فدل ذلك على أن النسخ فعل يختص بالآيات الكونية دون آيات التلاوة .

كذلك فإن قوله تعالى ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ يدل على أن المقصود بالنسخ هو الآية الكونية ، لأن قوم موسى سألوه كثيرا من الآيات الكونية المشاهدة المرئية .

فنحن نعلم أن بنى إسرائيل سألوا أنبياءهم كثيرا من الآيات الكونية ، وكان من أعظم وأجرأ ما سألوه ، ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، فقد ظنوا أن الله تعالى شىء يماثل خلقه أو يشبهه ، وكأن الله فى قوله ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ قد علم ما فى قلوب بعض أصحاب رسول الله ، من تمنيهم أن يروا بعض الآيات الحسية ، كما كان يفعل الله مع أنبيائه ورسله قبل النبى ، من تأييدهم بالآيات الحسية الخارقة مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، وقدرة عيسى على الخلق بإذن الله وإشفاء الناس وإحياء الموتى وطلبه أن ينزل الله مائدة من السماء ، وغير ذلك مما أيّد الله به رسله وأنبيائه .

فيبدو أن المعاصرين للنبى ـ ﷺ ـ طلبوا منه مشاهدة آيات حسية وأن ينزل الله آيات حسية كما أنزل على الرسل من قبله ، كما قال تعالى ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ (الرعد : ٧) ، وقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ﴾ (طه : ١٣٣) ، ويقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (الرعد : ٣٨) فكلمة آية وردت فى كل ما سبق بمعنى الآية الحسية الكونية .

وعندما سُئل الشيخ الغزالى عن آية النسخ وقضيتها [ألا يفيد السياق بأن القضية قضية نسخ شرائع سابقة بشريعة جديدة ؟ قال : (السياق قاطع بأنه لا مكان للقول بالنسخ التكليفى هنا ... فالكلام فى الآية (البقرة : ١٠٦) هو كلام عن القدرة وليس عن أحكام تكليفية كما قال محمد عبده ، وإلا قال : (ألم تعلم بأن الله عليم حكيم مثلا ، بدلا من قدير) ... وقوله تعالى ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ قاطع فى أنه اقتراح آيات كونية : فما الذى سُئله موسى من قبل ؟ (نريد أن نرى الله جهرة) ، نريد كذا وكذا ، فهؤلاء يريدون آيات كونية أو خوارق عادات] [١]

ويقول الإمام محمد عبده [المعنى الصحيح الذى يلتئم مع السياق إلى آخره ، أن الآية هنا هى ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم ، أى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ نقيمها دليلا على نبوة نبى من الأنبياء ، أى نزيلها ونترك تأييد نبى آخر بها ، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإننا ، بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف فى الملك ، نأتى بخير منها فى قوة الإقناع وإثبات النبوة أو مثلها فى ذلك] [٢]

وعندما استعرض السياق ونظر فى الآيتين التاليتين لآية النسخ ، قال الإمام محمد عبده [أنظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها فى هذا المقام فظهر أن ذكر القدرة وسعة الملك إنما يناسب الآيات بمعنى (الدلائل) دون معنى الأحكام الشرعية والأقوال الدالة عليها من حيث هى دالة عليها ، لا من حيث هى دالة على النبوة .

ويزيد هذا سفورا ووضوحا قوله عقبه ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ فقد كان بنوا إسرائيل لم يكتفوا بما أُعطى موسى من الآيات وتجرأوا على طلب غيرها وقالوا : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ويوضح هذا قوله تعالى فى آية أخرى ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ والمراد ، الآيات المقترحة ، بدليل السياق ، وهو إتفاق بين المفسرين .

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن صـ٨٣ .

(٢) المنار جـ١ صـ٣٤٤ .

ولوكان الموضوع موضوع طلب استبدال أحكام بأحكام تنسخها لما كان للتوعد بالكفر وجه وجيه .

هذا هو التفسير الذى تتصل به الآيات ، ويلتئم بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة ، وهو الذى يتقبله العقل ويستحليه الذوق ، إذْ لا يحتاج إلى شىء من التكلف فى فهم نظمه ولا فى توخيه مفرداته كالإنساء والقدرة والملك .

وقد أُضطر القائلون بالنسخ : نسخ الأحكام ـ مع ما عرفت من التكلف ـ إلى القول بجواز نسيان الوحى ، وطفقوا يلتمسون الدلائل على ذلك ، حتى أوردوا قوله عز وجل ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (الكهف : ٢٤) وليس من هذا الموضوع ، ولا المخاطب به النبى ـ ﷺ ـ وإنما جاء على طريق الحكاية . وأما قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (الأعلى) ، فهو يؤكد عدم النسيان ، لأن الإستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والإستمرار .

وفى تفسير ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى نؤخرها ، يقول الإمام : لا يظهر هذا المعنى فى مقام نسخ الأحكام ، كما يظهر فى نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الأنبياء ، فإن الآية التى تقترح على نبى لأنها كانت لنبى قبله ، قد تُنسخ بآية جديدة خير منها أو مثلها ، وقد تُؤخر بالآية الجديدة ، ثم تُعطى فى وقت آخر بعد الإقتراح ، ولكن تأخير آيات الأحكام ليس له معنى ظاهر .] [1]

علاقة آية النسخ بآية المحو والإثبات

آية النسخ هى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة : ١٠٦) وعرفنا أن النسخ هو فعل من أفعال الله ناشىء من صفة (الخالقية) ومن إسميْه تعالى (الخالق والخلاق) ، فهو فعل يدل على الإيجاد والإعدام والخلق والإبداع عموما . فالنسخ قدرة لله ناشئة من إسميْه : الخالق والخلاق ، وبالتالى فإن النسخ يدل على ذهاب آية وإتيان آية أخرى .

أما الإنساء، فقد عرفنا أن المقصود منه هو ترك الآية الكونية ، وتثبيتها على ما هى عليه.

---

(١) السابق صـ٣٤٤ ـ ٣٤٥ .

أما آية المحو والإثبات فهى قوله تعالى﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (الرعد : ٣٩) .

ونحن نرى أن هناك تشابها كبيرا ـ إن لم يكن تطابقا ـ بين الآيتين .

فالنسخ يقابله المحو ، والإنساء ، وهو الترك والتثبيت يقابله لفظ (ويثبت) .

والآيتان تتحدثان عن قدرة الله على الإيجاد والتخليق والإعدام والإفناء .

فآية سورة (الرعد : ٣٩) تناظر آية النسخ ، فكلتاهما تتحدثان عن الآيات الكونية .

علاقة آية النسخ بآية التبديل

عرفنا آية النسخ ، أما آية التبديل ، فهى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ١٠١) وإذا نظرنا فى أسباب نزول آية النسخ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ (البقرة : ١٠٦) نجد أن المفسرين قالوا : [إن المشركين قالوا : أترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ، ما هذا القرآن إلا كلام محمد ، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضا . فأنزل الله ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ وأنزل أيضا ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾] (١)

وفى موضع آخر من أسباب النزول ، يكون نزول آية التبديل لنفس السبب ، وهو ادعاء المشركين بأن محمداً يفترى الكتاب من عنده ، وليس هذا الكتاب من عند الله ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ .

إذاً ، فسبب النزول للآيتين كان هو نفس السبب ، وهو ادعاء المشركين بأن الرسول يقول قرآنا من عنده ، ويغيره كيف شاء .

وهذا يجعلنا لا نثق كلية فى أسباب النزول ، فقد تكون هناك أقوال صحيحة فى سبب نزول الآيات ، ولكن هذا لا يمنع من أن هناك أقوالا كثيرة غير صحيحة فى أسباب النزول ، ويؤكد هذا كثرة اختلاف الأقوال فى سبب نزول آية ما .

---

(١) أسباب النزول صـ٢٣٥ .

لذلك فإننا لا نرى وجود ارتباط صحيح أو علاقة قوية بين ادعاء المشركين بأن الرسول ـ ﷺ ـ يقول لأصحابه كلاما ويأمرهم بأوامر ثم يغيرها بعد ذلك ، أو أنه يفترى القرآن من عنده ، وبين نزول الآية ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ . إذْ أن هذه الآية تشير إلى طلاقة قدرة الله فى ملكوته من تغيير وتبديل وإيجاد وإعدام وإحياء وإفناء وغير ذلك .

أما دعوى الإفتراء ، فإنها تتناسب مع قول الله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ﴾ ففى هذه الآية ذَكَر الله دعوى المشركين وتكذيبهم للرسول .

ومع أننا نعرف أن بعض المشركين كانوا يتسمَّعون القرآن ، إن لم يكونوا قد حفظوا بعض آياته ، إلا أن هذا لا يجعلهم عالمين بمواقع الآيات فى السور ، وما قد يحدث لها من تبديل ـ هذا إذا كنا سنأخذ فى الإعتبار أن الآيات المبدلة هى آيات وحى ، وليست آيات كونية . ذلك أن السور لم تكن تنزل مرتبة كاملة خصوصا السور الطويلة ، ولم ينزل من السور مكتملا مرة واحدة ، إلا السور القصيرة جداً .

وأن الرسول كان يقول لأصحابه من الكتبه : ضعوا آيات كذا فى مكان كذا ، فى سورة كذا ، وأنه ـ ﷺ ـ كان يتدارس القرآن مع جبريل ـ عليه السلام .

كما أنه إذا حدث تبديل لآيات الوحى من مكان إلى مكان آخر ، فإن هذا لا يجعل المشركين يتهمون الرسول بالإفتراء نتيجة هذا التبديل ، إذْ أن الكتاب كتاب الله ، يُرتب آياته كيف يشاء ، ومادامت هذه الآيات لم تتحقق فى الواقع الخارجى الذى يشاهده المشركون ، إذاً ، فليست هناك قضية ، وليست هناك دعوى منهم بأن الرسول يفترى الآيات من عنده .

ولكن إذا كانت الآيات متحققة فى الواقع الخارجى ، ورآها كل الناس وشاهدها المشركون ، ثم أمر الرسول أصحابه بتغييرها أو تبديلها ، فإن المشركين يرون فى ذلك أن الرسول يبدل ويغير من تلقاء نفسه .

إذاً ، فما هى الآية التى تم إبدالها بآية أخرى ، فرآها المشركون وعاصروها فجعلتهم يتهمون الرسول بالإفتراء ؟

الحدث هو الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام فى الصلاة بدلا من بيت المقدس والآية التى تدل على هذا الأمر هو قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (البقرة : ١٤٤) .

وبعد أن توجه المسلمون إلى المسجد الحرام ، ظن المشركون أن الرسول ـ ﷺ ـ كان قد أمر أتباعه بأمر ثم قام بعد فترة بتغيير هذا الأمر ، وأمرهم بأمر مخالف .

فقد ظنوا أن الرسول كان قد أمر أصحابه باتخاذ بيت المقدس قبلة لهم أثناء الصلاة ، ثم أمرهم بعد ذلك بترك هذه القبلة والتوجه إلى البيت الحرام .

وليس هذا صحيحا ، لأن الرسول لم يأمر أصحابه بالتوجه إلى بيت المقدس ، ولا أن الله قد أمر رسوله بالتوجه إلى بيت المقدس ، بل كان هذا أمراً متروكا مسكوتا عنه ، لأن الله سوف يجعل من هذا الحدث إبتلاءً واختباراً لأتباع الرسول ، كما سنعرف بعد ذلك .

فبعد أن أمر الله رسوله ـ ﷺ ـ بالتوجه فى صلاته إلى البيت الحرام ، ثم رأى المشركون واليهود ذلك ، فظنوا أنه يبدل أقواله وأفعاله ، فاتهموه بأنه يفترى الآيات من عنده ، وأنه يفترى هذا الكتاب من عنده .

ويقول الله عن هذا الموقف ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : ١٤٢) . ويقول عن هذا الموقف أيضا ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ١٠١) .

وسوف نعود لمناقشة هاتين الآيتين معا لمعرفة ما بينهما من تشابه واتفاق فى الحدث الذى من أجله أُنزلتا .

ولكن الذى نود أن نؤكد عليه هو أنه ليس هناك ارتباط ولا تشابه بين آية النسخ (البقرة : ١٠٦) وآية التبديل (النحل : ١٠١) اللهم إلا فى معنى النسخ أنه التبديل ، ولكن ليس هناك ارتباط قوى بينهما فى سبب النزول .

فآية النسخ ـ كما قلنا قبل ذلك ـ تتحدث عن طلاقة قدرة الله فى ملكوته وطلاقة تصرفه، من إيجاد وخلق وإعدام وإذهاب وإتيان وتبديل وتغيير ، وكل ذلك فى ملكوته بمشيئته وإرادته وقدرته .

فهى آية عامة مطلقة لا تتحدث عن سبب معين من الأحداث المعاصرة للنبى - ﷺ - وإنما هى تتحدث عن شأن من شئون الله يختص بصفة (الخالقية) ويختص بأسماء الله الدالة على الخلق والتخليق مثل : الخالق والخلاق ، لذلك فإن الآية تختتم بقوله ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأن الخلق ، أو الإيجاد والتخليق يلزمها القدرة لإخراج (الآية الكونية) من عالم الغيب إلى عالم الشهود والحضور .

فى حين أن آية التبديل تتحدث عن إبدال آية كونية بآية كونية أخرى ولكن هذه الآية لا تتفق مع آية النسخ فى الحدث ، إذْ أن آية النسخ ليس فيها ما يدل على دعوى الإفتراء ، بل إننا وجدنا أنها من خلال عناصرها تتحدث عن القدرة الإلهية فى الخلق ، والإيجاد والترك والتثبيت ، كما أننا رأينا من خلال السياق أن الله يتحدث عن ملكيته للسماوات والأرض، ثم وجدنا بعد ذلك أن الله يعاتب أتباع الرسول على ما حاولوا أن يقلدوا فيه بنى إسرائيل عندما أرادوا أن يسألوا موسى أن يريهم من الآيات والمعجزات .

أما فى آية التبديل فإن فيها ذكر لإبدال الآيات ، وفيها ذكر لدعوى الإفتراء .

إذاً ، فآية النسخ آية عامة مطلقة ، تتحدث عن شأن من شئون الله ، وهذا الشأن لا يصح فيه النسخ ـ بمعنى الإبطال ـ لأنه مستمر وموجود بوجود ذات الله الخالقة المقتدرة.

كما أن الشيخ الغزالى يعلق على قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾ فيقول [الخازن (صاحب التفسير المعروف بتفسير الخازن) قال : إن هذه الآية جاءت ردا على أسئلة بأن محمداً يُقرر حكما ثم ينسخه ! فتساءلت : هذه الآية من سورة النحل المكية ، أين هى الأحكام التى تندر المشركون بها لأنها نُسخت بعد أن نزلت وحدث اضطراب فى تقرير الأحكام بسبب ذلك ؟ لا يوجد ... وهذا الكلام عن سبب نزول الآية مختلق ، ولم يوجد أحد من المشركين قال : إن محمداً يقرر حكماً شرعيا ثم ينسخه ... ما وجد ... لأنه ما وجد حكم فى مكة نُسخ بآية مكية ... لم يُعرف فى تاريخ النزول ولا فى تاريخ التشريع أن حكما نزل فى مكة ، ثم نزل فى مكة نفسها حكم ناسخ له ، القرآن لم يعرف ذلك ... فإذاً ، الكلام باطل ، ولا توجد أحكام بطل معناها .] [1]

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن صـ٨١ـ٨٢ .

obeikandi.com

والشيخ الغزالى يقرر ويؤكد أنه لم توجد أحكام فى مكة نسخت ، ولا توجد أحكام عموما بطُلت .

خلاصة البحث فى حقيقة النسخ

١ ـ أن المقصود بكلمة (آية) فى آية النسخ (البقرة : ١٠٦) هو الآية الكونية ، وليس الآية المتلوَّة أو آية الوحى ، لأن آية الوحى لا تبدل ولا تغير ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

٢ ـ أن المقصود بالإنساء هو الترك والتثبيت للآيات الكونية ، وليس النسيان ، لأن الرسول لا ينسى ، لأن وظيفته التذكير ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ، كما أن الله لا يجرى الإنساء ـ بمعنى النسيان ـ على عباده ، لأنه يطلب من الإنسان أن يكون كامل الوعى . فالله يعيب الذين لا يفقهون ولا يعلمون ولا يذكرون ولا يتفكرون .

٣ ـ أن النسخ بمعانيه اللغوية الأربعة (النقل ـ الإبطال ـ الإبدال ـ الإزالة) لم يصح تطبيقها على الآية المتلوة ـ أى على الوحى ـ وهذا يؤكد عدم وقوع النسخ فى آيات الله بما فيها آيات الأحكام .

٤ ـ أن النسخ بمعنى الإبطال لم يصدق لا على الآية المتلوة ـ لأن كلام الله ليس باطلا ـ ولا على الآية الكونية ، لأن خلق الله ليس باطلا ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ (آل عمران : ١٩١) . وهذا يؤكد تأكيداً لا ريب فيه بأن دعوى النسخ باطلة .

٥ ـ أن النسخ هو الإبدال ـ كما قال ابن عباس ـ والإبدال يحتوى على فعلين للمشيئة والإرادة الإلهية ، وهما محو شىء موجود ، وإيجاد شىء آخر جديد .

٦ ـ وعلى ذلك فالنسخ بمعنى الإبدال يتفق مع قوله تعالى ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الرعد : ٣٩) .

٧ ـ أن النسخ شأن من شئون الله فى ملكوته ، ينبع من صفة الخالقية لله ، فهو يُوجِد ويُعدم ، ويحيى ويميت ، ويمحو ويثبت ، وكل ذلك فى آياته الكونية ، وليس فى كتاب الوحى ، لأنه ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

٨ ـ أن الخيرية فى قوله تعالى ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ لا تكون خيرية الأحكام وتفاضلها فيما بينها ، لأن الأحكام كلها خير ، ولم يكتبها الله على الإنسان إلا لأن فيها الخير له . ولكن الخيرية تكون فى الآيات الكونية التى ينتفع بها الإنسان فى حياته اليومية .

٩ ـ أن المثلية فى قوله تعالى ﴿ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ إذا انطبقت على الأحكام فهذا يدل على الجهالة والسفاهة وعدم الحكمة من المشرع ، لأنه لا معنى أن يُبطل المشرع حكما ثم يأتى بمثل هذا الحكم مرةً أخرى .

١٠ ـ لو كان النسخ نسخ أحكام ، لختمت الآية بمثل قوله تعالى (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) أو (والله عليم حكيم) ، ولكن الآية ختمت بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فدل ذلك على أن كلمة (آية) فى آية النسخ هى آية كونية وليست آية متلوَّة ، كما أن سياق الآيات التى بعدها دل على أن المقصود بالآية هو (الآية الكونية) .

الفصل السادس

حقيقة تحويل القبلة

تمهيد

أول قبلة وضعت للناس : المسجد الحرام .

ملة إبراهيم : الإسلام .

مناقشة مشكلة تحويل القبلة

محاولة إستفهام الآية ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة :١٤٢] .

محاولة إستفهام الآية ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

محاولة إستفهام الآية ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٤٣].

محاولة إستفهام الآية﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ ﴾ [البقرة : ١٤٤]

محاولة إستفهام الآية ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

محاولة إستفهام الآية ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ ﴾ [البقرة : ١٤٥] .

محاولة إستفهام الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

محاولة إستفهام الآية ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [البقرة : ١٤٧] .

خلاصة البحث فى هذا الفصل

obeikandl.com

تمهيد

كما هو معروف أن أسلوب التكرار فى القرآن هو من أساليب تأكيد الخبر وتقريره ، مثل قوله تعالى ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ (التكاثر) وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾ (الشرح) .

وقد وجدنا من قبل أن هناك تشابها فى المعنى والهدف بين آية النسخ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ وبين آية المحو ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ . فالآيتان تتحدثان عن طلاقة قدرة الله فى ملكوته ، وطلاقة تصرفه فى مخلوقاته . كما أن هناك تشابها فى الألفاظ بين الآيتين ، فالنسخ فى الأولى يناظره المحو فى الثانية ، والإنساء فى الأولى ـ بمعنى الترك والتثبيت ـ يناظره الإثبات فى الثانية ، وهذا معناه تكرار الخبر بما يفيد التأكيد والتقدير .

كذلك فإننا نجد أن هناك تشابها كبيرا بين قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(البقرة : ١٤٢) وبين قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل : ١٠١) .

فالآية الأولى ـ التى سنصطلح على تسميتها بآية التحويل ـ تتحدث عن ترك المسلمين للآية الكونية الأولى التى كانوا يتوجهون إليها ، وهى بيت المقدس وتوجههم إلى الآية الكونية الثانية ، وهى المسجد الحرام . كما أنها تبدأ بقوله ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ أى الجهلاء الذين لا يعلمون ، وسوف نبين بعد ذلك سر كلمة ﴿ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ وورودها فى مطلع الآية .

والآية الثانية ـ وهى آية التبديل ـ تتحدث أيضا عن تبديل الآيات وتغييرها .

وقلنا من قبل أن كلمة (آية) المقصود بها الآية الكونية . وبالرغم من أن آية التبديل تبدأ بقوله ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً ﴾ وحرف (إذا) يعنى أنه إذا تحقق ذلك فى وقت ما ، وقمنا بتبديل آية مكان آية ، فإن الإجابة المعروفة الصادرة من المشركين هى قولهم : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ .

فآية التبديل تشترك مع آية التحويل فى تبديل الآيات ، كذلك فإن آية التبديل تشترك مع آية التحويل فى هؤلاء الصنف من الناس ، وهم الموصوفون بالجهل والسفاهة .

فآية التبديل تُختتم بقوله تعالى ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ ، فى حين أن آية التحويل تبدأ بقوله ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ وكلاهما تصفان هؤلاء القوم بالجهالة والسفاهة ، ونفى العلم عنهم .

كما أن الله يقول عن نفسه فى آية التبديل ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ ، فما هو مقصود الله ـ سبحانه وتعالى ـ من هذا القول ؟

ما الذى نستطيع أن نستشفه ونستبينه من هذا القول ؟

لماذا وضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الجملة الإعتراضية ، التى من هدفها البيان والتوضيح لشىء ما ، فبعد أن قال ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٖ ﴾ لم يورد جواب (إذا) الشرطية مباشرة ، فقال : ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ ﴾ ، بل اعترض أولا بالجملة الإعتراضية فقال ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ فما السر فى هذه الجملة الإعتراضية ؟

كذلك ، ما السر فى ابتداء آية التحويل بقوله ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ ، ولماذا لم يقل (سيقول الناس) جميعهم مثلا ، أو لماذا لم يقل (سيقول بعض الناس) ؟

فما السر فى ذكر هؤلاء الجماعة الجاهلين الذين لا يعلمون ؟ وما هو ذلك الشىء الذى يجهلونه فوصفهم الله بالسفهاء ؟

كذلك فى آية التبديل ، ما السر فى اختتام الآية بقوله تعالى ﴿ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾؟ ما هو الشىء المحجوب عنهم والذى لا يعلمونه فوصفهم الله بهذا الوصف ؟

ولكى لا نضع الإجابة على هذه الأسئلة مرة واحدة وبدون تقديم الأدلة على صحة الإجابة ، فإننا سوف نقوم بتقديم بعض الأدلة التى ستكشف لنا عن سر وصف الله لهؤلاء القوم بالجهالة ، والتى ستكشف لنا أيضا عن بعض الحقائق .

أول قبلة وضعت للناس : المسجد الحرام

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦) .

يقول الإمام الشوكانى [هذا شروع فى بيان شىء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل ، وذلك أنهم قالوا : إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة ، لكونه مهاجر الأنبياء ، وفى الأرض المقدسة ، فرد الله ذلك عليهم بقوله ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ الآية .

فقوله ﴿ وُضِعَ ﴾ صفة لبيت ، وخبر إن ، قوله ﴿ بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ﴾ ، فنبَّه تعالى بكونه أول مُتعبَّد على أنه أفضل من غيره . وقد اختُلف فى البانى ، فقيل : الملائكة ، وقيل آدم ، وقيل إبراهيم ، ويُجمع بين ذلك بأول من بناه الملائكة ، ثم جدده آدم ، ثم إبراهيم] [1]

ولا يهمنا فى هذا المقام ، من الذى بناه ، ولكن المهم هو أن الله أخبرنا بأنه أول بيت وضع الناس .

كما أننا يجب أن نلاحظ أن الله قال : ﴿ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ ، ولم يخصص ملة هؤلاء الناس ، فلم يقل وضع لليهود ، ولم يقل وضع للنصارى ، ولم يقل وضع للمسلمين ، بل إنه قال وضع للناس عموما ، منذ أراد منهم أن يتعبدوه .

كما أنه يقول فى ختام الآية ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل للمسلمين أوللمؤمنين أو لأهل الكتاب ، بل للعالمين منذ أن خلقهم الله وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وهذا دليل على أن الكعبة أو المسجد الحرام هو الوجهة التى يتوجه إليها الناس بجميع أجناسهم وجميع مللهم ، خصوصا إذا عرفنا أن جميع دعوات الرسل والأنبياء السابقين هى دعوة إلى الإسلام والتوحيد .

وفى الآية أداتين للتوكيد ، الأداة الأولى حرف ﴿ إِنَّ ﴾ التوكيدية ، والأداة الثانية حرف اللام الموجود فى قوله ﴿ لَلَّذِي ﴾ ، ونحن نعلم أن التكرار يفيد التوكيد والتقدير ، فما بالنا والتكرار هنا لأسلوب التوكيد نفسه .

---

(١) فتح القدير جـ١ صـ٣٦٢ .

ثم مرت أزمنة ودهور ، واندثرت بعض معالم البيت وأصبح مهجورا ، إلى أن أراد الله وبيَّن مكانه لإبراهيم ـ عليه السلام ـ ودلَّ عليه ، كما يقول تعالى ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (الحج : ٢٦) لأ فمعنى بوأنا : بيَّنا له مكان البيت] [١]

ثم عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيته من الأوثان وغيرها ، فيقول تعالى ﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (البقرة : ١٢٥) .

ومن الآيتين السابقتين يتبين لنا أن البيت منذ القدم كان للعبادة وخصوصا الصلاة بدليل لفظى ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فى الآيتين .

وفى تفسير الآية السابقة ، يقول الإمام الشوكانى [قوله ﴿ عَهِدْنَا ﴾ معناه هنا : أمرنا أو أوجبنا ... والمراد بالتطهير قيل من الأوثان ، وقيل من الآفات والريب ، وقيل من الكفار ، وقيل من كل ذلك ... والإضافة فى قوله ﴿ بَيْتِىَ ﴾ للتشريف والتكريم ... والطائف : الذى يطوف به ، وقيل الغريب الطارىء على مكة ،والعاكف : المقيم : وأصل العكوف فى اللغة : اللزوم والإقبال على الشىء ، وقيل هو المجاور دون المقيم من أهلها ، والمراد بقوله ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ المصلون ، وخص هذين الركنين بالذكر لأنهما أشرف أركان الصلاة .] [٢]

وكل الكلمات السابقة مثل الطائفين والعاكفين والركع السجود والقائمين تدل على أن البيت كان لجميع أنواع العبادة من طواف وعكوف وقيام وركوع وسجود أى للصلاة عموما ، بما فى ذلك أيضا مناسك الحج .

كما قال تعالى ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ (البقرة : ١٢٨) [والمناسك : جمع نسك ... وهو فى الشرع إسم للعبادة ، والمراد

---

(١) السابق جـ٣ صـ٤٤٧ .

(٢) السابق جـ صـ١٤١ .

هنا مناسك الحج ، وقيل مواضع الذبح ، وقيل جميع المتعبدات] [1] والذى نرجحه هو جميع المتعبدات والشعائر الدينية .

ثم يُذكِّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الناس بمكانة البيت ووظيفته ، فيقول تعالى ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٢) ، [وقوله ﴿ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أى اختاره لكم ، والمراد : ملته التى لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه وهى الملة التى جاء بها محمد ـ ﷺ ـ وقوله ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فيه إيجاز بليغ ، والمراد : إلزموا الإسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا .

وفى قوله ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ قال : رغبت اليهود والنصارى عن ملته ، واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله ، تركوا ملة إبراهيم الإسلام وبذلك بعث الله نبيه محمدا ـ ﷺ ـ بملة إبراهيم] [2]

فاليهود والنصارى ابتدعوا لهم ملة غير ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ واصطفوا لأنفسهم شعائر ما أنزل الله بها من سلطان .

ولذلك فإنهم يظنون أنهم على الهدى ، وطلبوا من المسلمين أن يتبعوا ملتهم فقالوا ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فقد انحرف اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم الحنيفية السمحة ، وابتدعوا مللا أخرى وزاغوا عن طريق الله المستقيم .

ومن ضمن ما تركوه وزاغوا عنه : تركهم لبيت الله الحرام ، واتخاذهم لبيت آخر غيره . ويقول تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة : ٥) أى : دين الملة المستقيمة .

---

(١) السابق صـ١٤٢ .

(٢) السابق صـ١٤٥ .

ملة إبراهيم : الإسلام

يقول تعالى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ (آل عمران : ٦٧) .

وقد علمنا من قبل أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وصَّى بنيه بالإسلام ، وكذلك فعل يعقوب مع بنيه ، حتى أنه اختبرهم وأشهدهم على أنفسهم بأن لا يميلوا عن صراط الله المستقيم ، ولا يحيدوا عن الشريعة السمحة ، فيقول تعالى ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٣) ، ويقول تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج : ٧٨) .

فملة إبراهيم : الإسلام ، وشريعته الحنيفية السمحة ، ولكن أهل الكتاب حادوا عن الطريق ومالوا عنه وضلوا وابتدعوا فى الدين [واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله ، تركوا ملة إبراهيم : الإسلام ، وبذلك بعث الله نبيه محمدا ـ ﷺ ـ بملة إبراهيم] (١)

ولما أراد الله أن يعيد الناس إلى ملة إبراهيم وإلى الشريعة السمحة أرسل ورسوله ـ ﷺ ـ وأمره باتباع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهى الإسلام ، لأن الإسلام هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم : ٣٠) ، ويقول تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل : ١٢٣) ، ويقول تعالى ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦١) ويقول تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء : ١٢٥) .

---

(١) نفسه .

فإذا كانت [الملة هى الشريعة والدين ... وهى معظم الدين وجملة ما يجىء به الرسل] (١)

فإن من جملة هذه الملة هو اتباع قبلة المسجد الحرام ، لأنه لو كان المقصود بالدين أو بالإسلام : التوحيد ، فإنه من التوحيد أيضا وحدة البيت المتوجَّه إليه .

وكما أن الله واحد ، ودينه واحد هو دين الإسلام ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران : ١٩) ، فمن المنطقى أن يكون بيته واحداً ، هو البيت الذى وضعه للناس منذ أن خلقهم ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦) .

إذاً ، فالتوجه إلى بيت الله الحرام هو من ضمن ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ بل هو بيت الله المقصود ، الذى يقصده الناس من كل حدب وصوب ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج : ٢٧) ، ويقول تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (آل عمران : ٦٨) ومن الإتباع بإبراهيم واتباع ملته ، إتباع قبلته أيضا .

والذى نريد أن نوضحه هو أن البيت الحرام أو المسجد الحرام هو القبلة التى اختارها الله لعباده منذ أن خلق الناس ، ثم نسى الناس وانحرفوا عن سبيل الله ، فجدد الله سبحانه بناء البيت بعد أن دلَّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ عليه وأحيا شعائر الإسلام مرة أخرى ، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ، ثم انحرف أهل الكتاب عن صراط الله المستقيم ، فابتدعوا اليهودية والنصرانية وغيَّروا شعائر الله ، فأرسل الله رسوله ـ ﷺ ـ خاتم الأنبياء ليعيد الناس إلى ملة الإسلام وشريعته السمحة ، وليبين لأهل الكتاب ضلالهم وتحريفهم وينكر عليهم تهودهم ونصرانيتهم وكتمانهم شهادة الحق ، فيقول تعالى ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٠) .

---

(١) لسان العرب مادة : ملل .

مناقشة مشكلة تحويل القبلة

ليس هناك نص فى كتاب الله يقرر ويؤكد أن الله كان قد أمر رسوله بأن يتوجه إلى بيت المقدس أو المسجد الأقصى .

فكما أن الله قد أمر رسوله والمسلمين بأن يتوجهوا إلى المسجد الحرام بقوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة : ١٤٤) ، فإنه ليس فى كتاب الله نص قاطع ، فيه أمر للرسول والمسلمين بأن يتوجهوا إلى بيت المقدس بمثل الصيغة الموجودة فى الآية السابقة .

كما أنه ليس هناك حديث نبوى ، يقول فيه النبى ـ ﷺ ـ أنه تلقى أمراً من ربه بأن يتوجه إلى بيت المقدس .

ولكن الأخبار الموجودة فى السيرة تقول بأن الرسول عندما كان مازال فى مكة ، كان يتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاته ، وكان يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، وكأنه فى ذلك كان يجمع بين القبلتين فى وقت واحد .

وعندما هاجر إلى المدينة كان يتوجه إلى بيت المقدس ، وبالتالى فإن هذا التصرف يتفق مع قول الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ١١٥) .

ومن هذا التصرف ، ومن هذه الآية ، يتبين لنا أن الله تعالى لم يحدد قبلةً بعينها وأمر رسوله والمسلمين بالتوجه إليها .

يقول سيد قطب [لا توجد رواية قطعية فى هذا الحادث ، كما أنه لا يوجد قرآن يتعلق بتاريخه بالتفصيل ، والآيات الخاصة به هنا تتعلق بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، وكان هذا فى المدينة بعد ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا من الهجرة .

ومجموع الروايات المتعلقة بهذا الحادث يمكن أن يستنبط منها ـ بالإجمال ـ أن المسلمين فى مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فُرضت الصلاة ـ وليس فى هذا نص قرآنى ـ وأنهم بعد الهجرة وُجِّهُوا إلى بيت المقدس بأمر إلهى للرسول ـ ﷺ ـ يُرجَّح أنه أمر غير قرآنى . ثم جاء الأمر القرآنى الأخير ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا

كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾] [1]

ويقول الإمام الرازى [الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مذكور فى القرآن] [2]

ومن الأخبار التى قيلت فى توجه الرسول إلى القبلتين ، ما ذكره الإمام الطبرى فى تفسيره ، ومنها ما يفيد بأن التوجه إلى بيت المقدس كان بأمر من الله ، ومنها ما يفيد بأن ذلك كان بالتخيير :

[٢١٦٦ ـ قال ابن جريج : صلى رسول الله ـ ﷺ ـ أول ما صلى إلى الكعبة ثم صُرف إلى بيت المقدس ، فصلت الأنصار نحو بيت المقدس قبل قدومه ثلاث حجج ، وصلى بعد قدومه ستة عشر شهرا ، ثم ولاَّه جل ثناؤه إلى الكعبة .

(وفى هذا الخبر نستدل على أن التوجه إلى بيت المقدس كان بأمر من الله بدليل قوله : ثم صُرف إلى بيت المقدس .)

٢١٦٥ ـ عن ابن عباس قال : لما هاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة ، وكان معظم أهلها اليهود ، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ـ ﷺ ـ بضعة عشر شهرا ، فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحب قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان يدعو وينظر إلى السماء ، فأنزل الله ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (البقرة : ١٤٤) .

(ومن هذا الخبر أيضا نستدل على أن الله قد أمره بالتوجه إلى بيت المقدس) .

٢١٦٤ ـ قال أبو العالية : إن نبى الله ـ ﷺ ـ خُيِّر أن يوجه وجهه حيث شاء فاختار بيت المقدس لكى يتألف أهل الكتاب ، فكانت قبلته ستة عشر شهرا ، وهو فى ذلك يقلب وجهه فى السماء ، ثم وجَّهه الله إلى البيت الحرام] [3]

وهذا الحديث الأخير عن أبى العالية ، غير منطقى ، لأنه لو كان الله خيَّر نبيه فى اختيار القبلة ، ثم اختار الرسول بيت المقدس قبلة له ، لثبته الله عليها لأنه خيره ـ ﷺ ـ فى ذلك .

---

(١) فى ظلال القرآن جـ١ صـ١٢٥ .

(٢) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٤٩٠ .

(٣) الطبرى جـ٢ صـ٧ ، ٨ .

كذلك فإن هذا الحديث غير منطقى ، لأن الرسول كان يُقلب وجهه فى السماء لاختيار القبلة ، وكان يحب أن تكون هى قبلة أبيه إبراهيم . كما أنه غير منطقى لأنه لا يتفق مع ما أخبر به القرآن .

ومن الأخبار السابقة نقول : أنه ليس هناك نص يشير إلى أن الله قد أمر رسوله ـ فى أول الأمر وهو مازال بمكة ـ بأن يتوجه إلى الكعبة ، ليس هناك نص قرآنى ولا حديث نبوى فى ذلك الأمر الأول .

كما أنه ليس هناك نص قرآنى ولا حديث نبوى يشير إلى أن الله قد أمر رسوله بأن يترك التوجه إلى الكعبة ويتوجه إلى بيت المقدس .

وبعد معرفة الأخبار السابقة نتساءل هذه الأسئلة :

إذا كان الرسول ـ ﷺ ـ وهو فى مكة اتجه فى صلاته إلى المسجد الحرام ، وإذا كان الله هو الذى أمره بذلك ، فأين ذلك النص الذى يدل على هذا الأمر ؟

وإذا كان الله قد أمره بعد ذلك بأن يترك التوجه إلى المسجد الحرام ويتوجه إلى بيت المقدس ، فأين ذلك النص الذى يدل على ذلك الأمر ؟

ثم بعد ذلك نتساءل : إذا كان الله قد أمر الرسول بترك التوجه إلى الكعبة والتوجه إلى بيت المقدس ، فلماذا لم يقل الناس أنه قد تم نسخ التوجه إلى الكعبة بالتوجه إلى بيت المقدس ؟ !

ولماذا لم تحدث ثورة وانقلاب فى الصفوف بسبب هذا النسخ الأول ؟

لماذا لم يتشكك بعض المسلمين فى الرسول ودعوته ، عندما ترك توجهه إلى الكعبة وتوجه إلى بيت المقدس ؟

لا توجد هناك إجابة على هذا السؤال إلا أن نقول : إن النبى كان يصلى وهو فى مكة متوجها إلى الكعبة ، إلا أنه كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس .

فقد ذكر الإمام الرازى [قال قوم : بل كان (الرسول) بمكة يصلى إلى بيت المقدس إلا أنه يجعل الكعبة بينه وبينها] [1]

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٤٨٩ .

كذلك فإن التوجه إلى أى قبلة ، كان بحسب عادة القوم وإلفهم ، فإذا كان القوم فى مكة يتوجهون صوب الكعبة ، فإن المسلمين فيها كانوا يتوجهون إليها .

وإذا كان القوم فى المدينة يتوجهون إلى بيت المقدس ، كان المسلمون فيها يتوجهون إلى بيت المقدس .

فمن الأخبار السابقة : أن أهل المدينة صلوا نحو بيت المقدس قبل قدوم النبى مهاجراً ثلاث حجج ، فى الوقت الذى كان فيه النبى فى مكة يصلى صوب الكعبة .

وهذا يدل على أن التوجه إلى أى قبلة كان بحسب عادة القوم فى كل مكان .

كما أنه يدل على أنه لم يكن هناك أمر بتعيين قبلة المسلمين وتحديدها .

إنما كانوا يوجهون وجوههم فى الصلاة تبعا لقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ .

ولكن ، لماذا لم تحدث ضجة فى مكة عندما هاجر النبى ـ ﷺ ـ إلى المدينة وتوجه فيها إلى بيت المقدس وترك الكعبة ؟ وكذلك ، لماذا لم يتشكك بعض أصحاب النبى فى الدين ؟

الجواب على السؤال الأول هو : لأن أهل مكة مازالوا فيها وهم يتوجهون إليها ، فى حين أن الرسول وأصحابه تركوا مكة وهاجروا إلى المدينة ، فلم يحزن أهل مكة لأن الرسول ترك قبلتهم ، لأنه انتقل من دارهم ، ولم يعد يهمهم أمر توجه الرسول إلى أى جهة .

فى الوقت الذى فرح فيه أهل الكتاب بأن الرسول توجه إلى قبلتهم ، فظنوا أن قبلتهم ـ بيت المقدس ـ هى القبلة الحق ، وأن دينهم هو الدين الحق .

[كان التوجه إلى بيت المقدس ـ وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ـ سببا فى اتخاذ اليهود إيَّاه ذريعة للإستكبار عن الدخول فى الإسلام ، إذْ أطلقوا ألسنتهم بالقول بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم فى الصلاة ، دليل على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هى القبلة وأنهم هم الأصل] [1]

---

(١) فى ظلال القرآن جـ صـ١٢٥ .

أما الجواب على السؤال وهو : لماذا لم يتشكك بعض المسلمين فى الرسول ودعوته ، عندما توجه إلى بيت المقدس ، فذلك لأن الله لم يحدد ولم يعين قبلة بعينها ، وأنهم كانوا يتبعون النبى أينما توجه ، وذلك تبعا لقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ١١٥) .

فالمسلمون الذين كانوا مع الرسول فى مكة اتجهوا إلى الكعبة كما اتجه نبيهم وعندما هاجروا اتجهوا إلى بيت المقدس كما توجه نبيهم ، وذلك لأن القبلة لم تُحدد ولم تُعين ، وأن الرسول كان له أن يختار وجهته تبعا لقوله تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ .

ولكن إذا كان لم تحدث ضجة عندما تحول الرسول من الكعبة إلى بيت المقدس ، فلماذا حدثت هذه الضجة عندما ترك الرسول التوجه إلى بيت المقدس ، وتوجه إلى المسجد الحرام ؟

الجواب : أن الرسول لما هاجر إلى المدينة ، ترك أهل مكة وقبلتهم فلم يتخذ وجهة مغايرة لوجهتهم أثناء وجوده فى مكة .

ولكنه عندما هاجر إلى المدينة توجه إلى بيت المقدس ، وهو الوجهة التى كان أهل الكتاب وأهل المدينة يتوجهون إليها ، فلما وُجِّه إلى المسجد الحرام ، تشكك بعض الناس .

كذلك فإن السبب فى هذا التشكيك ، هم أهل الكتاب ، أهل الإثارة والفتن والدسائس .

فبعد أن توجه الرسول إلى قبلتهم ، وظنوا أن ذلك يدل على أنهم على القبلة الحق والدين الحق ، خالفهم الرسول بأمر الله له بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فأثار ذلك حنقهم وغيظهم لأن ذلك يشكك فيما هم عليه من دين ، ويطعن فى ملتهم ويُلمِّح لهم بأنهم ليسوا على الحق فى دينهم ولا فى التوجه إلى المسجد الأقصى .

وهنا نلمح الحكمة فى تأخير الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام حتى هاجر الرسول إلى المدينة ، وذلك لأن هذا الأمر يهم أهل الكتاب بالمدينة ويؤثر فيهم وعليهم ، فى حين أنه لو كان الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام صدر للرسول فى مكة فإن هذا كان لا يؤثر لا فى

كفار مكة ولا فى أهل الكتاب بالمدينة ، إنما صدر هذا الأمر بالمدينة وسط أهل الكتاب وأحبارهم وعلمائهم ليكون صفعة على وجوههم ، وليقوِّم الله به إعوجاج عقيدتهم .

فإذا كان الرسول ترك مكة وقبلتها ، وعندما هاجر إلى المدينة توجه إلى بيت المقدس ، ثم صدر له الأمر الإلهى بأن يتوجه إلى المسجد الحرام ، فأصبح بذلك متوجها إلى قبلتين فى نفس المكان (المدينة) ، فاتخذ اليهود من ذلك ذريعة للتشكيك فى الرسول وفى دعوته ، وراحوا يقولون : ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ تشكيكا فى دين المسلمين .

وإذا كان اليهود أنفسهم يرفضون النسخ ويقولون عنه أنه (بداء) ويتخذون من النسخ ذريعة للتشكيك فى الدين .

وإذا كان واضعوا قواعد النسخ يقولون : النسخ هو إبطال حكم سابق بحكم لاحق ، أو رفع حكم شرعى بدليل شرعى متأخر عنه ، فأين هو الحكم الأول الذى أمر الله به نبيه بأن يتوجه إلى الكعبة ؟

أين هذا النص القرآنى ، أو حتى الحديث النبوى الذى نستدل منه على أن الله قد أمر نبيه بالتوجه إلى الكعبة وهو فى مكة ؟

ثم أين هذا الحكم الثانى ، الذى أمر الله به نبيه بأن يتوجه إلى بيت المقدس بدلا من التوجه إل المسجد الحرام .

وإذا افترضنا وجود هذين الحكمين ، فإنه سوف يكون لدينا عملية نسخ أولى .

ثم نتساءل مرة أخرى : إذا كان الحكم الثالث هو ترك بيت المقدس ، والعودة مرة أخرى إلى المسجد الحرام ، ألا يمكن باستخدام المنطق أن نقول أنه لم يحدث نسخ مطلقا ؟

إذْ أنه إذا كان قد تم نسخ القبلة الأولى (المسجد الحرام) ببيت المقدس ، وهذه أول عملية نسخ ، ثم تم نسخ بيت المقدس (القبلة اثانية) بالمسجد الحرام والعودة مرة أخرى إلى القبلة الأولى ، فهل هذا يعتبر نسخا ؟

إذا كان الحكم الأول الذى تم نسخه ، عُدنا إليه مرة أخرى ، فهو غير منسوخ فإذا قال قائل : إن الرسول عندما كان فى مكة لم يتوجه إلى الكعبة ، ولكن كان يتوجه إلى بيت

المقدس ، أو أن يقول : إن القرآن لم يتحدث عن توجه الرسول إلى الكعبة وهو فى مكة قبل الهجرة ، ولكنه تحدث عن تحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ ، وهذا معناه أنه كان يتوجه إلى بيت المقدس .

نرد على هذا القائل فنقول : من قواعد النسخ عندكم ، أن يكون هناك حكم أول ، وبالطبع هذا الحكم هو حكم إلهى ، وإذا كان حكما إلهيا ، فلابد أن يكون نصه موجودا فى القرآن ، وصريحا فى مثل صراحة قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (البقرة : ١٤٤) .

وذلك لأن تفسير كلمة ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ تحتمل أن يكون ذلك فرضا من الله ، كما أنها تحتمل أن تكون إختيارا من الرسول . والسياق هو الذى سيبين لنا الحقيقة .

ولكى نتبين ذلك سوف نقوم باستفهام بعض الآيات الخاصة بتحويل القبلة ، طالبين من الله أن يوفقنا إلى حسن الفهم ، وفهم مقصوده تعالى من هذه الآيات .

محاولة إستفهام الآية (البقرة : ١٤٢)

يقول تعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة : ١٤٢) .

يقول الإمام الطبرى ، فى قوله ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [سيقول الجهال (من الناس) وهم اليهود وأهل النفاق .] (١)

وفى لسان العرب [السفاهة : خِفَّة الحِلْم ، وقيل : نقيض الحلم ، وقيل : الجهل ... وحين سُئل النبى ـ ﷺ ـ عن الكبر ، فقال : الكبر أن تَسْفه الحق ، وتغمط الناس ، فجعل سَفِه واقعاً معناه أن تجهل الحق فلا تراه حقا ... وفى الحديث : إنما البغىّ : من سفه الحق ، أى من جهله ، والسفيه : الجاهل . رواه الزمخشرى : من سفه الحق .] (٢)

---

(١) الطبرى جـ٢ صـ٣ .

(٢) لسان العرب مادة : سفه .

فالسفاهة ليست الجهل فقط ، بل إنها جهل بالحق . والجهل ظلمة .

إذاً ، فأول شيء يطالعنا فى هذه الآية هو أن السفهاء هم : الجاهلون بالحق

أى أن هناك (حقا) ، ولكن السفهاء يجهلونه ، فما هو هذا الحق ؟

ولماذا إبتدأ الله هذه الآية بقوله ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؟

لماذا لم يقل ، مثلا : (سيقول الناس) جميعهم . أو لماذا لم يقل (سيقول بعض الناس) ولِمَ يخصص بأن هؤلاء الناس من السفهاء ؟

إذاً ، ورود كلمة السفهاء تشير إلى شيء ، وهو أنهم جهلاء ... ولكن جهلاء بماذا ؟... جهلاء بالحق .

وما هو عين هذا الحق ؟ ... هذا ما نرجوه من الله أن يفهمنا إيَّاه .

وكذلك ، لماذا لم يقل الله : (قال السفهاء) بدلا من (سيقول) ؟

ما هى وظيفة السين الدالة على الإستقبال ؟

يقول الشيخ الشعراوى : [حرف السين هنا يؤكد أنهم لم يقولو بعد ... ولذلك قال سبحانه وتعالى ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ ، فقبل أن يتم تحويل القبلة ، قال الحق تعالى أن هذه العملية ستُحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون] (١)

ونقول : لو أن الله أخبر المسلمين بأمرٍ لم يقع بعد ، وخاصة هذا الأمر المتعلق بتحويل القبلة ، لحدثت بلبلة فى صفوف المسلمين أشد مما لو عرفوا الأمر بعد حدوث الحادثة .

ذلك أن هذا الأمر متعلق بالصلاة ، فإذا جاءهم خبر لم يتحقق بعد ، بأن الله سيحولهم إلى قبلة أخرى ، لزعزع ذلك صفوفهم ، وبلبل أفكارهم ، واضطربت قلوبهم .

كما أن الآية تقول ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ ، وهذا يفيد أن التولى عن القبلة التى كانوا عليها ، وتحولهم إلى القبلة الثانية أمر تحقق فى الواقع الخارجى وتم ، وبالتالى فإن (السين) هنا لا تعنى أن الأمر لم يتحقق بعد ، وأن الله أخبر بأن هذا الحدث

---

(١) تفسير الشعراوى صـ٦٤١ .

سوف يحدث فى المستقبل ، فإن الله لم يخبر بشىء لم يتم وقوعه بعد ، بل إنه يخبر عن شىء تم وقوعه وتحقق بالفعل فى الواقع الخارجى .

فالسين فى قوله ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ تعنى أن المعاصرين لهذا الحدث (سيقولون) ، وكذلك الذين سيأتون من بعدهم (سيقولون) كذلك .

ذلك أن النص القرآنى عندما يتحدث عن حدث ، فليس المقصود فى الحديث أن يكون مقيدا بالمكان والزمان فقط الذى وقع فيه الحدث ، أو كما يقولون : سبب النزول .

بل إن الله يتعدى بحديثه وكلامه من الحادثة المقيدة فى الزمان والمكان إلى المستقبل بكل تداعياته .

فالله عندما يعالج حادثة ما ـ فى زمن النبوة ـ فإن هذا العلاج لا يتقيد ولا يتحدد بهذه الحادثة فقط ، بل إنه يتعداها ويتجاوزها وينطلق فى الوجود ليمارس فعله ، وذلك لأن كلام الله كلام مطلق لا يتقيد ولا يتحدد ، إذ أن صفات كلام الله من صفاته تعالى .

فإذا كان الحدث قد تم فى زمن النبوة ، وقال السفهاء من الناس فى هذا الزمن ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ ، فإنه كذلك ، سيأتى فى الأزمان اللاحقة من سيقول ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ .

وذلك لأن الحدث بعد تحققه فى الواقع الخارجى وإتمامه ، فإنه بعد ذلك يكون فى متناول الفكر . فيقوم الفكر بتناول هذا الحدث ـ سواء كان هذا الفكر للمعارضين لهذا الدين ولأعدائه الذين يريدون أن يقضوا على هذا الدين وإطفاء نوره ، أو كان هذا الفكر لأتباع هذا الدين والباحثين عن الحكمة والموعظة من وراء هذا الحدث .

فإذا كانت الحركة الفكرية حركة مستمرة فى الوجود ـ طالما وُجد الإنسان ـ فإن استخدام حرف يدل على الإستقبال أوْلَى وأبلغ مما كان سيقول : (قال السفهاء) ، لأن قال فعل ماضى يدل على انتهاء الفعل واكتماله .

ولكن الله يعلم أنه سيكون هناك متشككون فى زمن الرسول وفى الأزمنة التالية لزمن النبوة ، فاستخدم حرفاً يدل على الإستمرار والإستقبال .

ومن السفاهة كذلك ، أن يظن السفهاء أن القبلة ـ أيا كانت ـ هى المقصودة بالعبادة ، بل إن المقصود بالعبادة هو الله سبحانه .

فما هى الفائدة أن يتجه الناس إلى هذه القبلة أو تلك القبلة ، وهم بالله يشركون ؟ فالشرط فى التوجه إلى أى جهة أن يكون التوجه خالصا لله ، لا يُشرَك به ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ . لأن العبادة فى الأصل هى لله ، وليست لهذا البيت أو ذاك البيت ، وإنما جعل الله وحدة البيت لأجل وحدة الأمة ، ووحدة العبادة لله .

إن البيوت ليست لها قداسة فى حد ذاتها ، وليس للمسجد الحرام قداسة ذاتية ، فهو مجموعة من الحجارة تم بناؤها ليكون على هذا الشكل ، وإنما القداسة فى الغاية والهدف ، فكما أن الله واحد ، ويدعو إلى دين واحد هو الإسلام أو التوحيد ، فكان لزاما لذلك أن يكون له فى الأرض بيتا واحداً يرمز إلى الوحدة ، ويرمز إلى توحيد العبادة .

فلو كان الناس يتوجهون إلى بيوت عدة ، لدلَّ ذلك على اختلاف دياناتهم واضطراب مللهم وتعدد آلهتهم .

فإذا كان الله اختار للناس منذ أن خلقهم بيتاً واحداً وعيَّنه لهم ، فذلك لأن الله واحد ودينه واحد لا يتبدل .

فالقبلة التى اختارها الله للمسلمين له ، هى : المسجد الحرام ، وهو المظهر الخارجى لجماع الشريعة الحنيفية السمحة ، وهو مظهر التوحيد .

فوحدة البيت معناه : توحيد الوجهة ، وتوحيد الوجهة هو المظهر الخارجى الدال على توحيد الإله .

ويؤكد الله للناس أنهم أينما توجهوا فإنهم سيجدون الله ، لأن الله محيط بملكه وهو الواسع العليم .

فإذا كان الناس أينما توجهوا بوجوههم فسيجدون وجه الله ، إذاً ، فهذه حقيقة واقعية متحققة فى الوجود ، وكما يقول تعالى ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ (البقرة : ١٤٨) ، وكما قال تعالى ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا

وَكَرْهًا ﴾ (آل عمران : ٨٣) ، إذاً ، فهم متحدون رغما عنهم فى توجه الوجوه إلى الله ، لأن الله بهم محيط ، ولكنهم فى توجه القلوب مختلفون ، فلكل إلهه الذى يتوجه إليه ، ولكلٍ معتقده الذى يعتقده .

لذلك فإن الله يؤكد أنه موجود فى كل الجهات ، فيقول ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾ وقد قلنا قبل ذلك أن المشرق رمز لكل ما هو واضح وطلع عليه النهار ، وأن المغرب رمز لكل ما هو معتم ولفَّه الليل ، أى أن لله ما فى الليل والنهار .

وقوله ﴿ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، أى يهدى من يريد الهداية ، ويريد أن يعبد الله موحداً له إلى الصراط المستقيم المؤدى إلى معرفة الله ونيل رضاه .

كذلك فإن المشيئة هنا لله أيضا ، أى أنه هو الذى يهدى بمشيئته ، ومشيئة الله فوق مشيئة العباد ، وليس الله بظلاَّم للعبيد ، فمن أراد الهدى هداه الله ، ومن أراد الضلال أضله الله ، وهذا من عدل الله .

والمعروف أن الصراط المستقيم هو الأمر الكلى الجامع لكل ما يريده الله لعباده ، وهو الإسلام ، بكل شريعته وأحكامه وأوامره ونواهيه ، وحيث أن المتعيَّن بالحديث عنه فى هذه الآية هو المسجد الحرام ، إذاً ، فهو المقصود هنا بالصراط المستقيم .

محاولة استفهام الآية (البقرة : ١٤٣)

يقول تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

يقول الإمام الرازى : [إعلم أن قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ معناه : ما شرعنا ، وما حكمنا ... وقوله تعالى ﴿ كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ أى كنت معتقدا لاستقبالها ... ثم ههنا وجهان :

الأول : أن يكون هذا الكلام بيان للحكمة فى جعل القبلة ، وذلك لأنه ـ ﷺ ـ كان يصلى بمكة إلى الكعبة ، ثم أُمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة تأليفا لليهود ، ثم حُوِّل إلى الكعبة ، فنقول ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ﴾ الجهة ﴿ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ أولا (الكعبة) يعنى : وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء .

الثانى : يجوز أن يكون قوله تعالى ﴿ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ لسانا للحكمة فى جعل بيت المقدس قبلة ، يعنى أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة ، وإن استقبالك بيت المقدس كان أمراً عارضا لغرض ، وإنما جعلنا القبلة الجهة التى كنت عليها قبل وقتك هذا وهى بيت المقدس ، لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول ومن لا يتبعه وينفر عنه] [1]

وقل الإمام الرازى بأن (ما جعلنا) معناه : ما شرعنا وما حكمنا ليس له معنى فى لغة العرب ، ففى لسان العرب كلمة [(جعل) تأخذ معانى : وضع ـ صنع ـ صيَّر ـ عمل وهيَّأ ـ خلق] ولكنها لم تأت بمعنى شرع وحكم .

كما أنه ليس فى كتاب الله نص فيه حكم بأن الله حكم وشرع للنبى بأن يتوجه إلى بيت المقدس .

بل إن الإمام الرازى نفسه يقول بهذا الرأى إذ يقول : [الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس غير مذكور فى القرآن] [2] ، إذاً ، فكيف يقول فى موضع بأن (ما جعلنا) معناها : ما شرعنا وما حكمنا ، ومعنى قوله أن الله شرع للنبى بأن يتوجه إلى بيت المقدس ، ثم يقول فى موضع آخر بأنه لا يوجد فى كتاب الله ذكر بالتوجه إلى بيت المقدس ؟!

والذى نراه ، أن معنى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ فى هذه الآية ، أى (وما تركناك) أى وما جعلناك وما تركناك على هذه القبلة إلا لغرض ، وهو ابتلاء الناس وتمحيصهم .

وسوف نرى أن هذا الرأى يتفق مع كل ما يحيط بهذا الحدث .

فقد علمنا من قبل أنه ليس فى كتاب الله نص يشهد ويقرر ويؤكد أن الله أمر رسوله بالتوجه إلى أى قبلة قبل هذه المحنة .

وعلمنا أن الرسول كان مخيراً فى التوجه إلى أى مكان تبعا لقوله تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٤٧٩ .

(٢) السابق صـ٤٩٠ .

ولكنه كان فى مكة يتجه نحو الكعبة متبعا قومه ، ولما هاجر إلى المدينة ـ وكانوا يتجهون نحو بيت المقدس تبعهم فى وجهتهم ، وهو فى الحالتين إنما يوجه وجهه إلى الله ، فهو يعلم أن التوجه فى الحقيقة هو توجه القلب إلى الله .

إذاً ، فالله لم يأمره بالتوجه إلى بيت المقدس ، كما أنه لم يمنعه أو ينهاه عن ذلك ، بل تركه الله على هذه القبلة مدة من الزمن ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا فى علمه ، وهو أنه سيجعل من هذا الأمر ، امر ابتلاء واختبار للمسلمين من أجل التمحيص .

فالله سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ .

إذاً ، فهناك غاية وهدف من ترك الرسول على هذه القبلة فترة من الزمن ، وهذه الغاية وهذا الهدف ، هو ابتلاء الله للمسلمين ليعلم الصادقين فى إسلامهم وإيمانهم ممن هم يعبدون الله على حرف وإيمانهم ضعيف أو منافقين .

وقد عرفنا من قبل ـ فى الفصل الثانى ـ أن ماكان فى مقام الإبتلاء والإختبار لا يُعد حكما . لأن الحكم هو ما تقرر وتأكد لدى الشارع ، والمفروض فى هذا الحكم البقاء والإستمرار ، وليس التجريب بالأحكام من وقت لآخر .

ومادام الأمر ، أمرابتلاء ، فهو ـ أى الحكم ـ موقوت بزمن ، هو زمن الإبتلاء .

فكما رأينا فى قصة إبراهيم ، عندما ابتلاه ربه بذبح ابنه ، وبعد أن صدق إبراهيم فى هذا الإبتلاء قال الله ﴿ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الصافات) أى أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان من الصادقين فى عقيدتهم وإيمانهم بالله ، فالمقام هنا مقام ابتلاء من أجل الإصطفاء ، وليس مقام تقرير حكم ، فلم يكن حكما شرعيا لأنه لم يكن قد تقرر وعُمل به .

إذْ أنه لو كان قد تم ذبح إبراهيم لابنه ، لكان قد تقرر هذا الحكم فى شريعة إبراهيم ، ولكان هذا الحكم جاريا على كل من اتبع هذه الشريعة ، وحيث أن هذا لم يتم ، إذاً ، فلم يكن هذا حكما شرعيا ، لأن الحكم الشرعى يُفترض له النفاذ ، كما يُفترض له الإستمرار .

ولقد كان تعيين القبلة مقام ابتلاء ، كما قال تعالى ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾

وعن قتادة قال : [كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص] (١)

ونخلص من هذا الرأى إلى أن التوجه إلى بيت المقدس كان أمراً متروكا مسكوتاً عنه ، لأن الله يدبر أمراً ، وهو أنه سوف يجعل من هذا الحدث إختباراً وابتلاء للمسلمين من أجل تمحيصهم .

وما كان فى مقام الإبتلاء ليس بحكم ، لأن الإبتلاء موقوت بوقت هو وقت إنتهاء الإبتلاء والوصول إلى الغاية والهدف منه ، وهو التمحيص .

وهناك شىء آخر يدل على أن التوجه إلى بيت المقدس لم يكن حكما مقرراً من الله ، فالله يقول ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ ولم يقل (وما جعلنا القبلة التى كنتم عليها) أى أنه وجه الخطاب إلى النبى خاصة ولم يوجهه إلى المسلمين .

فى حين عندما عيَّن الله القبلة للمسلمين أمر بها الرسول والمسلمين فى أكثر من موضع ، فقال تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة : ١٤٤) ثم يقول فى موضع آخر ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (البقرة : ١٤٩) ثم يكرر مرة أخرى فيقول تعالى ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة : ١٥٠) .

وهذا يؤكد عناية الله بالحكم الأبدى الذى يريده للمسلمين باتباع المسجد الحرام .

فى حين أن بيت المقدس لم يذكر أبدا فى كتاب الله على أنه قبلة مقررة من قِبَل الله .

---

(١) الدرر المنثور جـ١ صـ٣٤٧ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾

يقول الإمام الطبرى [إختلف أهل التأويل فى التى وصفها الله جل وعز بأنها كانت (كبيرةً إلا على الذين هدى الله) .

فقال بعضهم : عنى جل ثناؤه بالكبيرة : التولية من بيت المقدس شطر المسجد الحرام .

قال ذلك : ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

وهذا التأويل أولى التأويلات عندى بالصواب ، لأن القوم إنما كبُر عليهم تحويل النبى ﷺ ـ وجهه عن القبلة الأولى إلى الأخرى ، لا عين القبلة ولا عين الصلاة ، لأن القبلة الأولى والصلاة قد كانت ، وهى غير كبيرة عليهم ... ومعنى كبيرة : عظيمة] [1] .

ويقول الإمام الرازى [إختلفوا فى أن هذه المحنة حصلت بسبب القبلة (أى بسبب تعيين القبلة وتحديدها واختيار الله للمسجد الحرام) أو بسبب تحويلها (أى بسبب عملية التحويل نفسها والتبديل فى الأحكام) .

فمن الناس من قال : إنما حصلت بسبب تعيين القبلة لأنه ـ ﷺ ـ كان يصلى إلى الكعبة، فلما جاء المدينة صلى إلى بيت المقدس ، فشُق ذلك على العرب من حيث أنه ترك قبلتهم . ثم إنه لما حوله مرة أخرى إلى الكعبة ، شُق ذلك على اليهود من حيث أنه ترك قبلتهم .

وأما الأكثرون من أهل التحقيق قالوا : هذه المحنة إنما حصلت بسبب التحويل ، فإنهم قالوا : إن محمداً ـ ﷺ ـ لو كان على يقين من أمره لما تغير فى رأيه ...

قال السدى : لما توجه النبى ـ ﷺ ـ نحو المسجد الحرام ، اختلف الناس ، فقال المنافقون : ما بالهم ، كانوا على قبلة ثم تركوها .

وقال المسلمون : لسنا نعلم حال إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس . وقال آخرون : : إشتاق إلى بلد أبيه ومولده . وقال المشركون : تحيَّر فى دينه.

واعلم أن هذا القول الأخير أولَى (أى أن المحنة بسبب تغيير الأحكام وتبديلها وليس

---

(١) الطبرى جـ٢ صـ٢٣ .

بسبب مُسمى القبلة) لأن الشبهة فى أمر النسخ (أى نسخ الحكم) أعظم من الشبهة الحاصلة بسبب تعيين القبلة ، وقد وصفها الله بالكبيرة ، فقال سبحانه ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ ...

أى : وإن كانت التولية ... ويحتمل أن يكون المعنى : وإن كانت هذه الفعلة .] [1] .

والذى نراه أن هذا الحدث ، انقسم له الناس فريقان :

فريق ينظر إليه نظرة العصبية والقومية [فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام فى جاهليتهم ، ويعدونه عنوان مجدهم القومى] [2] .

أما اليهود فقد كانوا يعتبرون أنهم على الدين الحق ، وأن قبلتهم هى القبلة .

والفريق الثانى : هو الفريق الذى ينظر إلى الحدث على أنه تبديل فى الآراء ، وتغيير فى المواقف ما يدعو إلى الشك فى قوة هذا الدين وأصالته وانبثاقه عن العليم الحكيم .

إذْ أن التغيُّر فى المواقف أو تبديل الآراء يوحى إلى النفوس بعدم استقرار المشرع ، فإذا كان المشرع غير مستقر ، إذاً فهذا الدين ليس من عند الله .

لذلك فإن الله يصف تبديل الآراء والأحكام أو المواقف بأنها (كبيرة) وبأنها أمر عظيم.

وهذا الوصف يؤكد أن الله لم يغير أحكامه ولم يبدلها ، وأنه لا يرضى عن هذا الفعل.

والله قد أكد فى كتابه أنه ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وأن الله يُحكم أمره ويتقنه فى علمه من قبل أن ينزله على عباده ، كما يقول تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (الأنعام : ١١٥) وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ (البقرة : ١٤٣) أى أنها كبيرة عند الله أن يفعل ذلك ، أى أن الله ينفى أن يكون تبديل الحكم أو حتى تبديل القول فعلا من أفعاله فهو تعالى يقول : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ (ق ٢٩) .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ٢ صـ٤٨١ .

(٢) فى ظلال القرآن جـ١ صـ١٢٦ .

كما أن الله يقرر ويؤكد أن هذا الفعل سيكون كبيرا عند الناس أيضا ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ .

أى أنه تعالى يؤكد أن تغيير الحكم أو تبديله (كبيرا) سواء عند الله . فالله يتعالى عن ذلك ـ أو عند الناس .

فماذا يقصد سبحانه بقوله ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾؟

يقصد : الذين يعلمون أن الله لم يحكم ـ قبل تعيين القبلة ـ بالتوجه إلى بيت المقدس ، بل إن التوجه إلى بيت المقدس كان باختيار الرسول وليس بحكم من الله ، وأن الله تركه على هذه القبلة مدة من الزمن ، لأنه سوف يجعل من هذا الحدث ابتلاء واختبارا لأتباع الرسول .

فإذا قال قائل : ولكن الله يقول ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ وهذا يعنى أن الله هو الذى أمره بذلك .

نقول : أن الذى يُفهم من قوله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ﴾ والذى يتفق مع كل الآيات الخاصة بهذا الحدث أن معناها (وما تركناك) أى : وما تركناك على اختيارك هذه القبلة ـ بيت المقدس ـ إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، عندما نأمر بالتوجه إلى البيت الأصل وهو المسجد الحرام .

فالمقصود بقولهً ﴿ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ ، أى هداهم لمعرفة الحق ، فعلموا أن الله لم يأمر فى وحيه بالتوجه إلى بيت المقدس ، كما أنهم علموا أن البيت الأصل والقبلة الحقيقية للمسلمين منذ عهد إبراهيم هى المسجد الحرام . وبالتالى فإنها ليست كبيرة عندهم لأنهم يعلمون أن هذا ليس تبديلا فى الحكم ، لأنه لم يكن هناك حكم باتباع بيت المقدس .

ويعود الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليؤكد أن التبديل فى الرأى ليس من أفعاله ولا من أخلاقه، فيقول ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

يقول الإمام الطبرى [قيل : عنى بالإيمان فى هذا الموضع : الصلاة .

٢٢٢٤ ـ عن ابن عباس قال : لما وُجِّه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الكعبة قالوا : كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك وهم يصلون نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله جل ثناؤه ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة : ١٤٣)] [(١)]

ولكن : لماذا قال الله إيمانكم ، ولم يقل صلاتكم ؟

أولا : لأن الإيمان واحد فى الحالتين سواء توجهوا إلى بيت المقدس ، أو إلى المسجد الحرام . فما دام الله هو المقصود بالعبادة فلن يضيع الله عملهم .

ثانيا : أن المقصود بقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ (البقرة : ١٤٣) أى : ما كان الله ليزعزع ثقتكم فيه وفى حكمته وإتقان أحكامه وثبات أقواله . فتبديل الأقوال ليس من شأن الله ولا من صفاته .

ويقصد سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٤٣) أن من ضمن رأفته ورحمته بالناس أن يهديهم ولا يضلهم ، وأن يثبتهم ولا يزعزهم ، وأن يقويهم ولا يضعفهم ، وأن يطمئنهم ولا يشككهم ، وأن يوحدهم ولا يفرقهم . فما كان له أن يفعل فعلا يُضل به عباده أو يجعلهم يتخبطون ويترددون ويتشككون ، بل إنه هو الهادى الذى يهدى عباده ، ويحب لهم الإيمان والهدى ، ويكره لهم الكفر والضلال .

وقد سبق ذكر الهداية فى نفس الآية ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ (البقرة : ١٤٣) ، فالذين هداهم الله ويعلمون الحق فى أن الله لم يبدل أحكامه ، لا يرون فى ذلك (كبيرة) ، بل الذين يرون أن هذا الفعل ـ تبديل الأحكام ـ (كبيرة) هم الذين يظنون أن الله بدَّل أحكامه ، وليس هذا حقا ، لأننا كما قلنا مراراً ، ليس هناك نص قاطع يدل على أن الله أمر المسلمين بالتوجه إلى بيت المقدس .

قول تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

التقلب هو التحول (القلب : تحويل الشىء عن وجهه ، قلَّب الأمور : بحثها ونظر فى عواقبها) [(٢)] .

---

(١) الطبرى جـ٢ صـ٢٤ .

(٢) لسان العرب مادة : قلب .

فالتقلب دال على التحول ؛ أى عدم الإستقرار على الأمر ، والتحول عنه إلى غيره من حين لآخر .

وهذا التقلب لا يخلو من البحث والنظر والتفكر ، ولكن الحال ينبىءُ على عدم الإستقرار والثبات على الأمر . وهذا يدل على قلق القلب وتوتره واضطرابه وحيرته لعدم استقراره على الأمر .

وتقلب الوجه هو المظهر الخارجى لتقلب القلب ، فالأصل فى التقلب هو القلب ، أى أنه غير مستقر على حال ، فيظهر ذلك على الأعضاء وخاصة الوجه .

فقوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ (البقرة ١٤٤) دليل على حالة عدم الإستقرار والإطمئنان التى كان عليها الرسول .

وهذا دليل على عدم تعيين القبلة ـ أيا كانت القبلة ـ بأمر إلهى ، وأن الرسول يتمنى أن يتوجه نحو المسجد الحرام ، كما كان يتوجه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكما قال له ربه (فاتبع ملة إبراهيم حنيفا) .

ولكن الأمر بتعيين القبلة كان لم يأت وقت الحكم به قبل أمر التوجه إليها ، وكأن الرسول فى حالة التقلب كان ينتظر الأمر الإلهى بالإبتداء فى التوجه إلى المسجد الحرام ، لأنه أُمر باتباع ملة إبراهيم ، ومن ضمن اتباع الملة : إتباع القبلة .

أى أن الرسول كان يعلم أن المسجد الحرام هو قبلة أمته ، وقبلة المسلمين من قبله ، وخصوصا على عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أن الرسول لم يكن مأمورا بالتوجه إلى قبلة بعينها، ولكنه كان ينتظر الأمر الإلهى الموقوت بوقته باتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين.

ولو كان الرسول مأموراً من قبل بأن يتوجه إلى بيت المقدس ، لَمَا كان له أن يعترض على الله فى هذا الأمر ، أو أن يقول : يارب ، بل إنى أريد أن أتوجه إلى المسجد الحرام ، لم يكن هذا ليصدر عن الرسول . فالله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

فإذا كان المؤمنون ليس لهم أن يعترضوا ولا أن يتخيروا لأنفسهم ، إذا قضى الله ، بل إذا قضى الرسول أمراً .

أى أنه ليس للمؤمن أن يعترض أو يتخير لنفسه إذا قضى الرسول أمراً ، فهل يعترض الرسول أو يتخير ـ وهو الرسول ـ إذا أمره الله بأمر ؟ وهذا دليل أكيد على أن الرسول لم يكن مأموراً من قِبَلِ الله بالتوجيه إلى بيت المقدس ولا إلى أية قبلة .

وإنما كان الرسول يقلب وجهه فى السماء ، لأنه اشتاق إلى نزول الأمر الإلهى بالتوجه إلى المسجد الحرام ليجمع أتباعه على قبلة واحدة ، وهى قبلة المسلمين منذ القدم وإلى الأبد، ولأن القبلة هى رمز وحدتهم .

وأما قوله ﴿ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ فليس معنى ذلك أنه يرضاها لأنها موجودة فى بلدته ، أو لأنها عز العرب ومجدهم ، فليس هذا مما يرضاه النبى ، لأن من ضمن ما تدعو إليه دعوته، هو عدم الإعتراف بالعصبية ولا بالقومية .

وما كان الرسول ليختار القبلة لهوى فى نفسه، أو عاطفة وتحنانا إلى موطنه .

وكما قلنا من قبل : ليس لمؤمن ولا لمؤمنة أن يختاروا لأنفسهم إذا قضى الله الأمر واختاره لهم .

ولكن الذى يُفهم من قوله تعالى ﴿ تَرْضَىٰهَا ﴾ هو أن النبى يرضى بما رضيه الله .فإذا كان النبى يعلم ـ مما علمه الله ـ أن قبلة المسلمين منذ القدم هى المسجد الحرام ، ويعلم من ضمن اتباع ملة إبراهيم هو اتباع قبلته ، إذاً ، فالرسول يرضى بهذه القبلة لما لديه من العلم بها من أنها أول بيت وضع للناس ، أى أن رضاء الرسول تابع لرضاء الله .

وليس المقصود من قوله ﴿ تَرْضَىٰهَا ﴾ أن الرسول كان يهوى التوجه إلى المسجد الحرام ويشتاق إليه عاطفة منه وتحنانا فأحب الله أن يحقق له هذه الأمنية فعيَّن له المسجد الحرام قبلةً له ، لا ، ليس هذا هو المقصود ، لأن الله لا يجعل شريعته تبعا للأهواء البشرية .

والذى نريد أن نؤكده هو أن تقلب الوجه كان دليلا على عدم تعيين أى قبلة كانت ، لأنه لو كانت هناك قبلة متعينة من قِبل الله ، لما تردد الرسول ولا تقلب ولا تحيرَّ .

فأمر القبلة لم يكن أمر تحويل أو تبديل ، بل كان أمر تعيين .

فمن الخطأ أن نقول : إن الله حوَّل القبلة أو بدَّلها ، لأن الله فى الأصل لم يأمر بالتوجه إلى

أى قبلة ، وما دام لم يأمر بالتوجه إلى بيت المقدس ، فلا يصح أن نقول أن الله بدَّل حكمه أو أمره ، وإنما الله ـ حسب ما هو معلوم وموقوت فى حكمته وعلمه ـ عيَّن المسجد الحرام وحدَّده قبلةً للمسلمين ، فمن كان يتوجه إلى بيت المقدس ، فعليه أن يتوجه إلى المسجد الحرام ، ومن كان يتوجه إلى المسجد الحرام ، فعليه أن يثبت على ذلك ، لأنه حان الوقت لتوحيد المسلمين حول قبلة واحدة تدل على وحدتهم وتدل على أن معبودهم واحد ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة : ١٤٤) ليعلم الناس أنكم أمة واحدة ودينكم واحد ومعبودكم واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

يقول الإمام الطبرى [يعنى هؤلاء الأحبار والعلماء من أهل الكتاب يعلمون أن التوجه نحو المسجد الحرام ، الحق الذى فرضه الله عز وجل على إبراهيم وذريته وسائر عباده بعده .] (١)

فالذين أوتوا الكتاب يعلمون من أنبيائهم وكتبهم أن المسجد الحرام هو القبلة الحق منذ أن خلق الله الإنسان ، بل إنه ليس هناك قبلة سواها أمر الله بها ، ولكنهم هم الذين حرَّفوا دينهم وشرعوا لأنفسهم ما لم يشرعه الله لهم فاتخذوا قبلة غير القبلة التى ارتضاها لعباده منذ أن خلقهم الله ، بل وكتموا هذا الحق عن الناس وضللوهم ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٤) عن التضليل وكتمان حقائق الدين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ (البقرة : ١٤٥) المقصود بالقبلة هنا : الملة والشريعة الإسلامية ، إذْ أن التوجه إلى هذه القبلة معناها : الأخذ بكل شرائع الإسلام ، لأن القبلة رمز ، وهى رمز التوحيد .

أى أن المقصود من قوله تعالى ﴿ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ أى : ماتبعوا ملتك ؛ أى دينك وشريعتك .

---

(١) الطبرى جـ٢ صـ٣٤ .

إن اتباع القبلة ـ أيا كانت هذه القبلة ـ على أنها ذلك المبنى المكوَّن من مجموعة من الحجارة ، ليس شيئا فى ذاته ، ولا يضر ولا ينفع .

فقد كان من الممكن أن يكون بيت المقدس هو البيت الذى اختاره الله للمسلمين ، فأى ضرر فى ذلك ؟

ولكن المقصود باتباع ﴿ قِبْلَتَكَ ﴾ هو اتباع ملتك وملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهى أن يعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، موحدين غير مشركين .

ولو كان المقصود بالقبلة هو البيت المبنى من مجموعة من الحجارة لما استقام ذلك مع باقى الآية .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ ، ومن المعلوم أن النبى قد توجه إلى بيت المقدس فترة من الزمن ، ولكنه ليس معنى ذلك أنه كان على ملتهم ـ ملة الشرك ـ حيث أن اليهود جعلوا (عزيزاً) ابن الله ، والنصارى جعلوا المسيح ابن الله ، بل إنه توجه إلى بيت المقدس وهو موحداً لله حنيفا .

إذنً ، فما دام الرسول قد توجه إلى قبلتهم (الحجرية) ولكنه لم يتبع ملتهم ودينهم ، فالمقصود بالقبلة هنا هو الملة والشريعة .

وكذلك فإن الله يقول عنهم ﴿ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ (البقرة : ١٤٥) ، إشارة إلى اختلافهم فى الدين ، إذ يقول الله عنهم ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (البقرة : ١١٣) ، وقوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٤٥) ولئن اتبعت أهواءهم مما حرفوه فى دينهم ، واتخاذهم قبلة غير القبلة التى أرادها الله لعباده، فمن بعد ما أعلمناك بالحق من أمر القبلة (المسجد الحرام) ، وأنها أول بيت وضع للناس ، وأن أهل الكتاب ابتعدوا عن طريق الله وانحرفوا عن دينه ، واتخذوا قبلة وملة أخرى غير التى ارتضاها الله لعباده ، فلئن اتبعتهم من بعد ما أعلمناك بالحق ، إنك إذاً لمن الظالمين .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾

بعض المفسرين يقولون أن الضمير فى قوله تعالى ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ عائد على الرسول ـ ﷺ ـ أى أن أهل الكتاب يعرفون النبى من كتبهم .

فالشيخ الشعراوى يقول [يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله ـ ﷺ ـ وبعثه ورسالته التى يحاولون أن يشككوا فيها ... فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد ـ ﷺ ـ ومكتوب فى التوراة والإنجيل أنه الحق ، ومطلوب منهم أن يؤمنوا به ...] (١)

لا إنكار فى أن الرسول مذكور فى كتب أهل الكتاب وموصوف فيها ، إلا أن السياق لا يدل على أن المقصود من كلمة ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ عائدة على النبى ، بل إنها عائدة على المسجد الحرام .

فأهل الكتاب يعلمون المسجد الحرام ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، يعرفون مكانه ، ويعرفون شكله ، ويعرفون أمره ، ويعرفون أنه القبلة الحق ، وأنه لا قبلة لله سوى هذا المسجد الحرام .

ولكن فريقا منهم يكتمون هذا الحق ، ويحجبون هذا العلم عن الناس وهم يعلمون أنه الحق .

يقول الإمام الطبرى [يعنى جل ثناؤه بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ ﴾ (البقرة : ١٤٦) علماء اليهود والنصارى ، يعرفون هؤلاء الأحبار من اليهود والعلماء من النصارى أن البيت الحرام قبلتهم وقبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك ، كما يعرفون أبناءهم .

قال قتادة : يعرفون أن البيت الحرام هو القبلة .

وقال السدى : يعرفون الكعبة هى قبلة الأنبياء ، كما يعرفون أبناءهم .

وقوله ﴿ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ وذلك الحق هو القبلة ... يقول ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

---

(١) تفسير الشعراوى صـ٦٥٣ .

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ التى كانت الأنبياء من قبل محمد - ﷺ - يتوجهون إليها ، فكتمتها اليهود والنصارى ، فوجه بعضهم شرقا (النصارى) وبعضهم بيت المقدس (اليهود) ورفضوا ما أمرهم الله به ، وكتموا مع ذلك أمر محمد - ﷺ - وهم يجدونهم عندهم فى التوراة والإنجيل] [1]

قوله تعالى : ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

يعود الله - سبحانه وتعالى - فيكرر ويؤكد أن هذا الحق هو المسجد الحرام .

يقول الإمام الطبرى [هذا خبر من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ عن أن القبلة التى وجهه نحوها هى القبلة الحق التى كان عليها إبراهيم - خليل الرحمن - ومَن بعده من أنبياء الله عز وجل] [2] أى أن المسجد الحرام هو القبلة الحق من ربك يا محمد ، فلا تكن من المتشككين والمترددين .

وفى هذه الآية نجد إشارة قوية إلى أن الله لا يضل عباده .

فإذا كان المسجد الحرام هو القبلة الحق ، فمعنى ذلك أن غيرها باطل .

فهل كان الله أمر رسوله بأن يتوجه إلى بيت المقدس ، والله يعلم أنها ليست القبلة الحق ؟ هل يصح هذا على الله : أن يضل عباده ويشككهم فى دينهم وإلههم ورسولهم وقبلتهم ؟ !

إن هذه الآية تؤكد أن الله لم يأمر نبيه بالتوجه إلى بيت المقدس ، لأنه لو كان قد أمره بأن يتوجه إلى بيت المقدس ، لما صح لله أن يصف وحيه بعد ذلك - بما فيه من توجه إلى المسجد الحرام - بأنه الحق ، لأن الخالق الحق لا يخلط قوله بالباطل . ولما صح أن يأمر نبيه بأن لا يكون من الممترين .

ويعود الله - سبحانه وتعالى - فيكرر ويؤكد أن الحق فى هذه الآيات هو المسجد الحرام ، وأنه هو القبلة الحق ، فيقول تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة : ١٤٩) .

---

(١) الطبرى جـ٢ صـ٣٦ - ٣٨ .

(٢) السابق صـ٣٨ .

obeikandi.com

والله تعالى لا يأمر إلا بالحق ، والحق هو واحد عند الله ، إذاً ، فالحق هو قبلة واحدة هو المسجد الحرام، وهذا ما أمر الله به .

خلاصة البحث فى هذا الفصل

بعد أن حاولنا التعرف على مشكلة تحويل القبلة للوقوف على الحقيقة من خلال استفهام الآيات المتعلقة بالحديث عنها ـ وهى تسع آيات متوالية فى سورة البقرة ، من الآية ١٤٢ إلى الآية ١٥٠ ، نلخص ما توصلنا إليه فى النقاط التالية :

١ ـ ليس هنالك نص قرآنى قاطع يأمر الله فيه نبيه بأن يتوجه إلى بيت المقدس (أى أنه ليس هناك حكم أول) ، وما دام ليس هناك حكما أولا ، إذاً ، فليس هناك نسخ بالحكم الموجود فى القرآن الآمر بالتحول إلى المسجد الحرام ، لأن هذا الحكم الآمر بالتحول إلى المسجد الحرام هو الحكم الأول والأوحد .

٢ ـ الأمر بتحويل القبلة لا يعنى أنه كان هناك حكم سابق بالتوجه إلى بيت المقدس،ولكن هذا التوجه كان متروكا ومسكوتا عنه ، وقد دبَّر الله بعلمه وحكمته ، أنه سيجعل من هذا الأمر بعد ذلك إبتلاءً واختباراً لأتباع الرسول .

٣ ـ الأمر بالتحويل لا يعنى أن الله كان قد أمر أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ، ولكنه كان أمراً بالتعيين والتحديد للقبلة للمسلمين .

فقد صلى النبى ـ ﷺ ـ أولاً إلى الكعبة فى مكة ثم إلى بيت المقدس فى المدينة وفى كل ذلك لم تكن حُددت القبلة للمسلمين ، لأنه لم يأت الوقت المناسب فى علم الله لفرض هذا الحكم ، فلما جاء الوقت المعلوم فى علم الله وحكمته ، أنزل الله الأمر للمسلمين بتحديد القبلة وتعيينها .

إذاً ، الحكم الذى أنزله الله لم يكن حكما بالتبديل ـ أساسا ـ ولكن حكما بالتعيين والتحديد ، أى أنه حكم واحد لم يسبق بحكم آخر .

٤ ـ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ؛ أى المسجد الحرام ، وأن هذا البيت الذى اختاره الله لعباده منذ أن خلقهم ، فإذا كان هذا هو بيت الله ، أى هو القبلة الحق ، إذاً ،

فليس لله أن يأمر بالتوجه إلى غيره ، وأن هذا البيت هو قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو الذى سمانا المسلمين ، إذاً ، فقبلتنا هى قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإذا كان إبراهيم هو أبو الأنبياء إذاً، فهذه القبلة هى قبلة الأنبياء ، وأتباعهم من بعدهم .

٥ ـ إذا كان النبى ـ ﷺ ـ مأموراً من ربه بأن يتبع ملة إبراهيم حنيفا ، فيكون من ضمن اتباع الملة هو إتباع القبلة .

وإذا كان الرسول قد تأخر فى اتباع قبلة المسجد الحرام ، مع أنه مأمور من قبل باتباع ملة إبراهيم ، فذلك لأنه لم ينزل إليه حكم من الله بالتوجه إلى المسجد الحرام ، أى لم ينزل إليه حكم بتعيين القبلة ، بل كان الرسول يتوجه فى صلاته تبعا لقوله تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ .

٦ ـ السفهاء هم الذين يجهلون الحق ، ويعمون عن الحقيقة ، وهذه أول إشارة تطالعنا فى أول آية تختص بتحويل القبلة ، وهو أن هناك حقيقة غائبة عن السفهاء ، وأن هناك حقا لا يعلمونه ، وهذا الحق هو أن المسجد الحرام هو القبلة الحق ، وما سواه من قبلات ليس من تشريع الله ، بل هو من ابتداع أهل الكتاب وتحريفهم .

كذلك فإن السفهاء هم الذين ظنوا أن الله بدَّل أحكامه ، فظنوا أن الله أمر بالتوجه إلى بيت المقدس ثم بدَّل حكمه ، فأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام ، وهذا ظن السفهاء ، لأن الله لا يبدل أحكامه ولا يُغير أقواله ، كما يقول تعالى ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ (ق : ٢٩) ، ويقول تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ (الأنعام : ١١٥) ، وكما يقول تعالى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس : ٦٤) .

٧ ـ فسرنا قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ أى : وما تركناك على القبلة التى كنت عليها باختيارك ، إلا لغرض وهدف ، وهو أن نبتلى الناس ونمحصهم فى إيمانهم ، لنرى من هو صادق فى إتباعك ممن هو يعبد الله على حرف ، ضعيف الإيمان .

وما كان فى مقام الإبتلاء من أجل التمحيص والإختبار والإصطفاء لا يُعد حكما ، لأن الحكم هو ما تقرر وتأكد لدى الشارع .

والمفروض فى الحكم أن يكون حكيما محكما متقنا ويستمر ويبقى عاملا فى الوجود .

وإذا كان الأمر أمر ابتلاء ، إذاً ، فهو موقوت بزمن ، فإذا تم الأمر وتحققت الغاية ، إنتهى الأمر ، وانتهى الحكم .

والتوجه إلى بيت المقدس كان باختيار رسول الله وليس بأمر إلهى ، وكان هذا التوجه متروكا ومسكوتا عنه ، لأن الله يدبر أمراً ، وهو أمر الإبتلاء ، كما يقول تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ .

٨ ـ معنى قوله تعالى ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ يعنى أمرين : الأمر الأول وهو ما يخص الناس ، وهو أن الناس ـ وخصوصا المؤمنين بالله المتبعين لرسوله ـ إذا ما شعروا بأنهم كانوا على أمر ثم بدَّل له الرسول أو الله ، فإن ذلك يؤدى إلى تشككهم وزعزعتهم وعدم ثقتهم ، ودخول الريب والشك إلى قلوبهم ، لأن اضطراب الأحكام والأوامر يزعزع الثقة فى الحكم والأمر .

لذلك فإن الله وصف هذه الحالة بأنها (كبيرة) عند الناس ، ولكن هؤلاء ظنوا بأن الله بدَّل حكمه ، فى حين أن الله لم يبدل حكمه .

ولذلك يقول تعالى ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ أى الذين يعلمون أن الله لم يبدل حكمه ، بل كان التوجه الأول لبيت المقدس متروكا ومسكوتا عنه ، فى حين أن الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام كان هو أول حكم من الله ، وكان الله يُعين القبلة ويحددها ، وليس أنه كان يبدلها .

الأمر الثانى وهو ما يخص الله ، وهى أن اعتقاد تبديل الأحكام والأوامر يُعتبر (كبيرة) فى حق الله ، فمن اعتقد أن الله بدَّل كلامه وغيَّر أحكامه فقد قال على الله قولا كبيرا ، وبهتانا عظيما ، لأن الله حكيم عليم يتقن أفعاله ويحكم آياته من قبل أن ينزلها على عباده ، وهو يقول ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ .

٩ ـ قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ يفهم منه أمران :

الأمر الأول : وهو أن الله يقول لعباده : سواء كانت وجهتكم قِبَل بيت المقدس أو قِبَل المسجد الحرام ، فما دمتم مخلصين الدين لله حنفاء ، وأن توجهكم لله وحده لا شريك له ، فإن هذه هى العبادة الحق ، ولن يضيع الله إيمانكم وسيجزيكم أجوركم .

الأمر الثانى : وهو أن الله يقول : ما كان الله ليزعزع ثقتكم فيه ويدخل إلى قلوبكم الشك والإرتياب بأن يبدل أحكامه ويغير أقواله ، فتضطرب نفوسكم وترتاب قلوبكم ، فالله لا يضل عباده ، بل يهديهم ويثبتهم على الصراط المستقيم .

١٠ ـ قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . أى أن من ضمن رأفته بالناس ورحمته الواسعة بهم أن لا يضلهم ولا يحيرهم ولا يبلبل أفكارهم ولا يزعزع ثقتهم ولا يضعف إيمانهم ولا يجعلهم يترددون ويتخبطون ويعمهون ، بل إنه يهديهم إلى الحق ويثبتهم عليه .

١١ ـ فى قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، دليل على تقلب القلب وحيرته وعدم استقراره على قبلة محددة ، وهذا معناه أن الله لم يحدد للنبى ـ ﷺ ـ قبلة يتوجه إليها قبل الأمر له بالتوجه إلى المسجد الحرام . لأنه لو كان الله أمر النبى بأن يتوجه إلى بيت المقدس ، لَمَا تحير الرسول ، ولما تقلب وجهه وما كان له أن يعترض على هذا الأمر، إيمانا من الرسول بأن أمر الله هو الحق وما عليه إلا أن يطيع ، لأنه يتلقى الأمر من لدن حكيم عليم ، ولأنه (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) .

١٢ ـ قوله تعالى ﴿ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ معناها أن رضاء الرسول تابع لرضاء الله ، وليس معناها قبلة تهواها وتميل إليها بعاطفتك ، ليس كذلك ، لأن دين الله ليس فيه اتباع للأهواء والميول والنوازع .

كما أن النبى يرضاها لأنه يعلم أنها قبلة المسلمين منذ القدم ، وأنها من ضمن ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو مأمور باتباعها . فرضاء النبى عن المسجد الحرام ليس رضاء لهوى نفسه ، أو لأن المسجد الحرام فى أرض مولده وأرض قومه وعشيرته ، بل لأنها القبلة الحق التى يعلمها عن ربه .

١٣ ـ أمر القبلة لم يكن أمر تحويل أو تبديل حكم إلهى ، بل كان أمر تعيين وتحديد القبلة للمسلمين ، وهو أول أمر إلهى باتخاذ قبلة ولم يسبقه أمر آخر باتخاذ قبلة أخرى .

أى أن نزول الأمر الإلهى باتخاذ قبلة ـ أيا كانت هذه القبلة ـ لم يكن قد حان وقته ، فلما حان وقته ، أنزل الله الأمر الإلهى باتخاذ المسجد الحرام قبلة للمسلمين ، وهذا هو أول أمر يُوجَّه للمسلمين بالتوجه إلى قبلة معينة .

ومعنى ذلك : أنه من الخطأ أن نقول : تحويل القبلة ، بل نقول تعيين القبلة وتحديدها ، لأن ما كان عليه المسلمون قبل نزول الأمر الإلهى باتخاذ المسجد الحرام قبلة لهم هو أمر من اختيارهم وليس أمراً من الله ، وما دام الله لم يحكم أولا بقبلة بيت المقدس ، إذاً ، فالله لم يحول أو يبدل أمره .

إذْ أن مقصود نزول الأمر الإلهى بفعل شىء ، هو الإلتزام به والإنتهاء عن غيره ، فالمقصود هو الترك والإنتهاء ، وكأن الله عندما أنزل أمره قال للرسول : أُترك هذه القبلة التى أنت عليها وانته عنها ، والتزم بما أمرناك به ووجَّهْناك إليه .

فالقول بالتولية ﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾ أو التحول عن القبلة الأولى هو قول السفهاء الذين لا يعلمون الحق ولا يعرفون الحقيقة .

لأن القبلة الأولى لم تكن قبلة عيَّنها الله للمسلمين ، ولم تكن قبلة يرتضيها الله لعباده .

فالحق هو أن المسجد الحرام هو قبلة عباد الله منذ أن خلقهم ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦) .

فإذا كنا سنقول بأن أمر القبلة هو أمر تحويل وتبديل ، فعلينا أن نفهم أن ذلك ليس تحويلا أو تبديلا لحكم إلهى سابق ، ولكن علينا أن نفهم أن المقصود من الدين عموما هو تحويل الناس من أوضاع هم عليها ، ولا يرتضيها الله إلى أوضاع أخرى اختارها الله وارتضاها لهم .

فمعظم الأحكام نزلت فى أوضاع لم يرتضها الله وأراد أن يحول الناس عنها .

فمثلا : زواج الإبن من زوجة أبيه بعد موته ، كانت عادة مفعولة ومعترف بها فى الجاهلية ، فأنزل الله حكما بالنهى عن ذلك ، وليس معنى ذلك أنه كان هناك أمر إلهى سابق يحل زواج الإبن من زوجة أبيه . ولكننا لا نقول مع ذلك أنه قد تم تحويل الناس عن ذلك الفعل ، بل نقول أنه نزل أمر وحكم بترك هذا الفعل والنهى عنه .

كذلك فى القبلة ، فإنه لم يكن أمر تحويل ، بل أمر ترك ونهى عن فعل .

لأن التحويل يوحى بأنه كان هناك أمر سابق بالتوجه إلى بيت المقدس ثم تم التحول عنه إلى المسجد الحرام .

١٤ ـ قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ، إذاً ، فأهل الكتاب كانوا يتوجهون إلى قبلة ما أنزل الله بها من سلطان ، كانوا يتوجهون إلى قبلة اختاروها بأهوائهم ، وأن هذه القبلة التى اتبعوها لم يأمرهم بها الله ، وهم يعلمون من أنبيائهم وكتبهم أن القبلة الحق هى المسجد الحرام ، وأن الله ليس له بيت يتوجه إليه الناس سوى هذا البيت .

ولكن أهل الكتاب ـ الذين أثاروا الفتنة وشككوا المسلمين فى دينهم ورسولهم بسبب أمر القبلة ـ يكتمون الحق ويخفون الحقيقة عن الناس . فأهل الكتاب يعرفون المسجد الحرام كما يعرفون أبنائهم يعرفون مكانه وشكله ، ويعرفون المقصود من وجوده ، ويعرفون أنه أول بيت وضع للناس ، ولكنهم يكتمون الحق ويخفون الحقيقة .

١٥ ـ قوله تعالى ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وما دام المسجد الحرام هو القبلة الحق ، فما كان الله ليأمر عباده بغيره ، لأن الحق لا يتبدل ولا يتغير . والله لا يضل عباده المؤمنين به ولا يشككهم ولا يحيرهم ولا يبلبلهم ، بل يثبتهم ويجعلهم يثقون فيه ، لذلك فإنه لا يبدل أقواله ولا يغير أحكامه .

وهكذا نجد فى ختام هذا الفصل ، أن الله لم يأمر بالتوجه إلى بيت المقدس لأن بيت الله الأوحد الذى وضعه للناس منذ أن خلقهم هو المسجد الحرام ، وهى القبلة الحق ، وما دام كذلك فلا يأمر الله إلا به ، وأما غير ذلك ، فهو ظن السفهاء .

obeikandl.com

الفصل السابع

أحدية الكتاب وثبات الأحكام

مقدمة

أحدية الله وأحدية الكتاب

من صفات الكتاب الأم

الكتاب الأصل والكتب المنزلة منه

تحريف الكتب

الفرق بين الشرعة والشريعة

تصديق الكتب بعضها لبعض

خلاصة البحث فى هذا الفصل

obeikandl.com

obeikandl.com

أحدية الكتاب وثبات الأحكام

مقدمة

إدَّعى القائلون بالنسخ أن الشريعة الإسلامية نسخت كل الشرائع السابقة عليها و (أن النسخ لو لم يكن جائزا عقلاً وسمعاً ، لما ثبتت رسالة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ إلى الناس كافة ، لكن رسالته العامة للناس ثابتة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ... فالشرائع السابقة ليست باقية ، بل هى منسوخة بهذه الشريعة الختامية ... فالنسخ لو لم يكن جائزا وواقعا ، لكانت الشرائع الأولى باقية ، ولو كانت باقية ما ثبتت رسالته ـ ﷺ ـ إلى الناس كافة ...

وقالوا : أن النسخ وقع بالشريعة الإسلامية ووقع فيها ، على معنى أن الله نسخ بالإسلام كل دين سبقه ـ ونسخ بعض أحكام هذا الدين ببعض) [1] .

وهذه الدعوى غير صحيحة . فالواقع يشهد بأن الشريعة الإسلامية موجودة ، ويوجد بجانبها شرائع أخرى ، وأن هذه الشرائع فيها من الأحكام ومن التحليل والتحريم ما هو موجود فى الشريعة الإسلامية . ولكن الخلاف الموجود بين هذه الشرائع وشريعة الإسلام هو الخلاف فى المعتقد ؛ أى فى الذات الإلهية نتيجة للإنحراف عن المنهج المستقيم .

فالله ـ سبحانه ـ يقول ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

فالكلمة السواء هى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فلا يقولوا العزير بن الله ـ ولا يقولوا المسيح ابن الله ، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

فالإسلام يعترف بوجود الشرائع الأخرى الموجودة بجواره . فالله ـ سبحانه ـ يقول ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (المائدة : ٥) فهذا

---

(١) أنظر مناهل العرفان جـ٢ صـ١٩٠ـ ١٩٤.

تقرير صريح من الله ـ سبحانه ـ بوجود الشرائع الأخرى بجوار شريعةالإسلام . ثم إن الله ـ سبحانه ـ يخاطب الناس جميعا فيقول ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة : ٤٨) . وهذا تقرير آخر من الله بوجود الشرعات الأخرى بجوار الشريعة الإسلامية . فليس من المتصور أن يكون بنوا آدم كلهم تابعين للشريعة الإسلامية ، ولكن لابد من الإختلاف والتباين بين الناس .

فثبوت رسالة محمد ـ ﷺ ـ إلى الناس كافة لا يستدعى إبطال الشرائع الأخرى ونسخها، بل هى دعوة مفتوحة لمن أراد أن يدخل فيها وينعم بالشريعة الكاملة .

فقد ثبتت رسالة الإسلام بجوار الشرعات الأخرى .

والقول بأن الله نسخ بالشريعة الإسلامية كل دين سابق ، قول يحتوى على خطأ عظيم ؛ لأن الشرائع السابقة هى شرائع شرعها الله ، والإدعاء بأن الله أبطل هذه الشرائع إدعاء باطل ، لأن معناه أن هذه الشرائع كانت شرائع باطلة ، وهذا خطأ عظيم فى حق الله .

فالله ـ سبحانه ـ يقول ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى : ١٣) فهذا دليل على أن الشرائع السابقة ـ شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين جميعا ـ هى شرائع باقية غير منسوخة ، وهى موجودة الآن فى الشريعة الإسلامية ومحفوظة بها . فالشريعة الإسلامية هى الشريعة التى احتوت على جميع الشرائع التى شرعها الله للأمم السابقة ، وهى المهيمنة عليها .

فكتاب الإسلام ـ القرآن الكريم ـ هو الكتاب الحاوى لجميع الشرائع السابقة وهو المهيمن على الكتب السابقة والمصدق والحافظ لها . والله ـ سبحانه ـ يقول ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ (آل عمران : ٨١) . فكل الكتب التى أُنزلت على الرسل والنبيين محفوظة فى كتاب الله الخاتم ـ القرآن الكريم ـ وبالتالى فإن الشرعات السابقة غير منسوخة ـ ونحن نتكلم هنا عن الشرعات بدون تحريف .

وفى هذا الفصل سوف نجد أن الشرعات كلها صادرة عن كتاب واحد ، عن إله واحد، وبالتالى فلن يكون بينها وبين بعضها اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض ، بل

توافق وتكامل ، وسوف نجد أن الكتب المنزلة من عند الله يصدق بعضها بعضا بما يثبت عدم التناقض والإختلاف ، كما سنجد أن كتاب الإسلام هو الشريعة الكاملة ، وأنه احتوى على جميع الشرعات السابقة ، وبالتالى فإنه احتوى على جميع الأحكام السابقة بما ينفى دعوى النسخ على العموم . وكذلك سوف نجد أن هناك فرقا بين (الشرعة) وبين (الشريعة) ، وأن شريعة الإسلام هى اكتمال الدين للناس .

أحدية الله وأحدية الكتاب

أرسل الله رسله جميعا بدعوة التوحيد والإسلام له وحده ، فبعث نوحا إلى قومه فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف : ٥٩) ، وأرسل (هوداً) إلى قومه فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (الأعراف : ٦٥) ، وأرسل (صالحاً) إلى قومه فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف : ٧٣) ، وأرسل (شعيبا) إلى قومه فقال : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (الأعراف : ٨٥) . فأول حُكم حَكَم الله به على خلقه هو حكم التوحيد والإسلام له وحده لا شريك له . يقول تعالى ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (آل عمران : ٨٣) ، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران : ١٩) ، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

والإسلام عقيدة وشريعة ، وليس عقيدة فقط ، فإذا كان الدين عند الله هو الإسلام ؛ وهذا الحكم هو الحكم الأزلى القديم ، إذاً ، فالشريعة هى الأخرى بأحكامها أزلية قديمة.

فعندما يقول الله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء : ٢٣) فإن هذا الحكم وهذا القضاء ـ باشتماله على الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له وباشتماله على الإحسان للوالدين ـ هو حكم أزلى قديم ، ومعنى ذلك أن هذا الحكم لا يتبدل ولا يتغير لأنه صادر عن الإله الواحد الأحد .

فإذا كان الله واحداً أحداً ، فإن كتابه كذلك يكون كتابا واحداً لا يتغير ولا يتبدل . لذلك فإن الله يقول ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (يونس : ١) ويقول ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) . وفى تفسير قوله تعالى

﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ يقول الإمام الشوكانى : (قل مجاهد وقتاده : أراد التوراة والإنجيل وسائر الكتب المتقدمة ، فإن (تلك) إشارة إلى غائب مؤنث ، وقيل (تلك) بمعنى هذه ، أى هذه آيات الكتاب الحكيم ، وهو القرآن ، ويؤيد كون الإشارة إلى القرآن أنه لم يُجر للكتب المتقدمة ذكر ، وأن الحكيم من صفات القرآن لا من صفات غيره .

و (الحكيم) المحكم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ... وقيل (الحكيم) معناه الحاكم ... كقوله ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ وقيل الحكيم بمعنى المحكوم ... أى حكم الله فيه بالعدل والإحسان .)[1]

ولا شك أن الحكيم صفة من صفات القرآن ، ولكن (الكتاب) المقصود فى الآية هو الكتاب الذى عند الله الذى أنزل منه جميع كتبه إلى جميع رسله . ولما كان هذا الكتاب من ضمن صفاته أنه حكيم ، فإن كل كتاب ينبثق عنه يكون له نفس الصفة ؛ أى يكون حكيما، وبالتالى يكون القرآن المنبثق عن الكتاب الأصل الموجود عند الله حكيما .

والدليل على أن الكتاب المقصود فى الآية هو الكتاب الذى عند الله ، هو إسم الإشارة (تلك) التى تشير إلى البعيد أو الغائب ، وذلك الكتاب الذى عند الله هو الكتاب الأم والكتاب الأصل الذى أنزل الله منه جميع كتبه إلى رسله .

وكذلك فإن الذى يدل على أن المقصود من كلمة (الكتاب) هو الكتاب الأم الذى عند الله ، قوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) فالكتاب الذى أُحكمت آياته ، هو الكتاب الأم الذى عند الله ، وقوله تعالى (ثم فصلت) أى : ثم فُصِلت آياته وأُنزلت بحسب اقتضاء الظرف والحكمة ، لذلك فإن الله يقول : من لدن حكيم خبير . أى ينزل آياته بعلمه وخبرته وحكمته من ذلك الإنزال .

يقول الإمام الشوكانى فى تفسيره هذه الآية (معنى (أُحكمت آياته) صارت محكمة متقنة لا نقص فيها ولا نقض لها كالبناء المحكم ، وقيل : معناه أنها لم تُنسخ بخلاف

---

(١) فتح القدير جـ٢ صـ٤٢٢ .

التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فيكون هذا الوصف للكتاب باعتبار الغالب ، وهو المحكم الذى لم يُنسخ ... وقيل جُمعت فى اللوح المحفوظ ثم فُصِلَت بالوحى ...وقيل معنى إحكامها أن لا فساد فيها ... و (ثم فصلت) معطوف على أُحكمت ، والتراخى المستفاد من (ثم) إما زمانى ـ إن فُسِّر التفصيل بالتنجيم على حسب المصالح ـ وإما رتبىٌّ إن فُسِّر بغيره مما تقدم ... وفى قوله (من لدن حكيم خبير) لفٌّ ونشرٌ ، لأن المعنى : أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور .)(١)

والتفسير السابق يقصد بالكتاب هنا (القرآن) ، معتقداً بوقوع النسخ فيه . وهذا التفسير لا يتوافق مع وصف الكتاب سواء كان الكتاب هو الكتاب الأم الذى عند الله ، أم (القرآن) لأن النسخ مخالف للإحكام ، فكيف يصف الله كتابه ـ أيا كان هذا الكتاب ـ بأنه حكيم ، ثم نقول نحن بوقوع النسخ فيه ، والمعلوم أن النسخ هو إبطال الحكم ؟!

والمقصود بالكتاب فى الآية السابقة أيضا ، هو الكتاب الأم الذى عند الله ، فقد أحكم الله آياته من قبل أن ينزلها ، وبعد أن أحكم آياته وأتقنها ولمَّا شاءت خبرته وحكمته أن ينزلها ، أنزلها من كتابه الأم .

كذلك ، فإن قوله تعالى ﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ (الرعد : ١) يشير إلى أن الذى أنزل إلى الرسول ـ ﷺ ـ أنزل من الكتاب الأم الذى عند الله . فقوله تعالى (تلك آيات الكتاب) إشارة إلى ذلك الكتاب الموجود فى عالم الغيب عند الله ، كما أن سياق الآية يشير إلى أن هناك فرقاً بين (الكتاب) وبين (الذى أنزل إليك) . فالكتاب يمثل الكل ويمثل المصدر ، فى حين أن (الذى أنزل إليك) يمثل الجزء أو البعض .

وكذلك قوله تعالى ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾ (الكهف : ٢٧) . فقوله (كتاب ربك) يشير إلى الكتاب الأم الذى عند الله ، والذى هو المصدر والأساس لكل تنزيل ، وهو يمثل الكل ، فى حين أن قوله (واتل ما أوحى إليك) أى الجزء أو البعض الذى أوحيناه إليك من كتابنا الأعظم المحكم الذى لا تتبدل كلماته .

---

(١) السابق صـ٤٨٠ .

من صفات الكتاب الأم

ومن صفات الكتاب الأم أنه الكتاب الجامع لكل شيء خلقه الله وأراده ، يقول تعالى فى ذلك ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام : ٣٨)

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام : ٥٩)

﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس : ٦١)

﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل : ٧٥)

فهو الكتاب الجامع الشامل الذى كتبه الله فى عالم الغيب عنده ، والذى منه يبرأ الخلق وينزل آياته ، كما قال تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ (الحديد : ٢٢) .

ومن صفات ذلك الكتاب الأم ، أنه لا ريب فيه ، فقد قيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ٢) [أن الإشارة إلى غائب ، واختُلف فى ذلك الغائب ، فقيل : هو الكتاب الذى كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق (لاريب فيه) أى لا مبدل له . وقيل : (ذلك الكتاب) الذى كتبه الله على نفسه فى الأزل أن رحمته سبقت غضبه] (١) .

وهذا التفسير لا يتنافى مع الآيات السابقة فى أن الكتاب الأم هو الكتاب الجامع لكل صغير وكبير ورطب ويابس وحاضر وغائب .

ومن صفات ذلك الكتاب أيضا أنه كتاب حكيم ، يقول تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (لقمان ٢) فكما أنه لا ريب فيه ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تعارض ولا تناقض فيه ، فإن ذلك لا يكون إلا لأنه محكم حكيم .

ومن صفاته كذلك أنه مبين ، كما فى الآيات السابقة . وما دامت هذه هى صفات الكتاب الأم ، فإن أى كتاب ينبثق عنه أو ينزل منه سيكون متصفا بنفس الصفات يقول

---

(١) السابق جـ١ صـ٣٣ .

تعالى فى صفة القرآن ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الزخرف : ٤) [أى : وإن القرآن فى اللوح المحفوظ (لدينا) أى عندنا (لعلىّ حكيم) رفيع القدر محكم النظم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ... قال الزجاج : أم الكتاب : أصل الكتاب ، وأصل كل شىء أُمه ، والقرآن مثبت عند الله فى اللوح المحفوظ] (١) .

الكتاب الأصل والكتب المنزلة منه

بما أن الكتاب الأصل (أم الكتاب) كتاب واحد ، كَتَبه إله واحد لا إله إلا هو ، إذاً ، فهذا الكتاب لا يتبدل ولا يتغير ، كما عرفنا أن من صفاته أنه كتاب محكم حكيم ، وبالتالى فإن أى كتاب سينزل من الكتاب الأم سيكون متصفا بنفس الصفات .

وما دام الكتاب الأصل واحدا ، فإن أى كتاب ينزل منه فى فترة من فترات الزمن ستكون أحكامه ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فالكتاب الأصل واحد ، والكتب المنزلة منه أحكامها واحدة . والآيات كثيرة تدل على أن الكتاب واحد .

يقول تعالى عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (النساء : ٥٤) ويقول عنه كذلك ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ (العنكبوت : ٢٧) ويقول تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ٥٣) . ويقول فى يحيى ـ عليه السلام ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (مريم : ١٢) ، ويقول عن عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ (مريم : ٣٠) ، ويقول تعالى عن محمد ـ ﷺ ـ ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (النساء : ١١٣) ، ثم يخبرنا الله تعالى عن رسله جميعا فيقول ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (الحديد ٢٥) .

فالكتاب الذى أنزله الله على رسله وأنبيائه هو كتاب واحد ، أى كتاب ثابت لا تتغير أحكامه ولا تتبدل على مر الأزمنة والدهور .

---

(١) السابق جـ٤ صـ٥٤٧ .

تحريف الكتاب

إذا كانت الكتب التى أنزلها الله على رسله وأنبيائه هى من نفس الكتاب الأصل ، وأن الأحكام التى فيها هى أحكام ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فلماذا أنزلها الله على رسله مرارا وتكرارا ؟

هناك سببان لذلك

السبب الأول : النسيان والتحريف والكتمان .

السبب الثانى : إضافة حكم على الشرعة السابقة .

ففى السبب الأول : يقول الله تعالى عن بنى إسرائيل ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٤٢) ويقول عنهم كذلك ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٥) . ويقول بصفة عامة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة : ١٥٩) ويقول عن بنى إسرائيل ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (المائدة : ١٣) . ويقول عن النصارى ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (المائدة : ١٤) ويقول تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ (آل عمران : ١٨٧) .

فبسبب النسيان والترك والكتمان والتحريف أرسل الله رسله ليذكروا الناس بما نسوه وتركوه وليكشفوا ما كتمه بعضهم وليصححوا ما تم تحريفه وافترائه على الله .

كذلك فإن الله يقول ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ (المائدة : ١٥) .

والسبب الثانى وهو إضافة حكم إلى الشرعة السابقة ، فالله لم ينزل جميع أحكامه كاملة فى كل شرعة ؛ بل تدرج فى إنزال أحكامه إلى البشر ، كل أمة بحسب ظروفها فكل أمة لها كتاب خاص بها ، كما يقول تعالى ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ﴾

(الجاثية : ٢٨) و [الأمة : الملة . قال الفراء : المعنى وترى أهل كل ذى دين مجتمعين ... ومعنى (إلى كتابها) : إلى الكتاب المنزل عليها] (١) .

فلكل أمة كتاب ، ولكن هذه الكتب لا تختلف مع بعضها فى الأحكام ؛ بل الأحكام ثابتة لا تتبدل إن وُجدت فى جميع الكتب ، ولكن الفرق بين كتاب وكتاب هو كمية الأحكام أو عددها ، فالله لم ينزل أحكامه جميعها دفعةً واحدةً ، بل تدرج فى إنزالها على عباده بحسب خبرته وحكمته فى موائمة الظروف لنزول هذه الأحكام .

فالله بحانه وتعالى ـ يقول ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (المائدة : ٤٨) و [الشرعة والشريعة فى الأصل : الطريقة الظاهرة التى يُتوصل بها إلى الماء ، ثم استعملت فيما شرعه الله لعباده من الدين ... ومعنى الآية : أنه جعل التوراة لأهلها ، والإنجيل لأهله ، والقرآن لأهله ... ، وقوله (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) بشريعة واحدة وكتاب واحد ورسول واحد] (٢) .

وكل أمة لها حظ من الكتاب ؛ أى من الأحكام يقول تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (آل عمران : ٢٣) و [الكتاب : التوراة ، وتنكير النصيب للتعظيم : أى نصيبا عظيما (يدعون إلى كتاب الله) الذى أوتوا نصيبا منه وهو التوراة] (٣) .

فالنصيب من الكتاب هو التوراة ، أما كتاب الله فهو الكتاب الكامل ، وهذا يسوقنا إلى فهم الفرق بين الشرعة والشريعة .

الفرق بين الشرعة والشريعة

يقول الله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (المائدة : ٤٨) .

فى هذه الآية نجد أن الشرعة هى الملة الخاصة بكل أمة دون الأخرى ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ؛ أى على ملة واحدة جامعة .

---

(١) فتح القدير جـ٥ صـ١٠ .

(٢) السابق جـ٢ صـ٤٨ .

(٣) السابق جـ١ صـ٣٢٨ .

ولكن ليس معنى هذا أن هناك اختلافاً أو تناقضاً فى الأحكام بين شرعة وأخرى ، بمعنى أن تُحرمَ شرعةٌ شيئا ما ثم تُحله الشرعة الأخرى . ولكن الفرق بين شرعة وأخرى هو فى كمية الأحكام أو عددها .

فإذا نظرنا فى لسان العرب وجدنا أن [الشريعة والشرعة : ما سنَّ الله من الدين وأمر به كالصوم والصلاة والحج والزكاة وسائر أعمال البر .

والشرعة والشريعة فى كلام العرب : مشرعةَ الماء وهى مورد الشاربة التى يشرعها الناس فيشربون منه ويستقون . والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء عداً لا انقطاع له ويكون ظاهرا معينا] (١) .

فالشرعة فى لسان العرب هى ابتداء الطريق ، وإذا طبقنا هذا المعنى على الدين فإننا سنجد أن الشرعة هى ابتداء الأمر بالدين ، أى الأمر بالأحكام . لذلك فإننا سنجد أن كل ملة سابقة على الدين الإسلامى هى (شرعة) وليست (شريعة) ، وذلك لأن الشرعة هى ابتداء طريق التدين والسير فيه ، وذلك أمر مقبول لُغويا ومنطقيا .

فمن حيث اللغة فإن كلمة (شرع) تعنى الشروع والإبتداء فى الأمر ، فيقال [شرع فلان فى كذا وكذا ، إذا أخذ فيه ، والشارع : الطريق الأعظم الذى يشرع فيه الناس] فالشارع له ابتداء فى السير ، والشروع فى السير هو الإبتداء فيه .

ومن الناحية المنطقية فإن الله لم يكلف عباده فى أول الخلق بكل الدين ؛ أى بكل الأحكام ، بل إنه تدرج معهم فى الأحكام حتى وصل بهم فى نهاية الشريعة الإسلامية إلى الدين الكامل . فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ (الشورى : ١٣) .

وإذا أردنا أن نتصور تدرج الشريعة وتسلسلها منذ بدء الخليقة ـ منذ آدم عليه السلام ـ فإننا لا نتصور أن الله ينزل على آدم حكما بتحريم زواج أبنائه من بناته ، ذلك أن هذا الزواج كان أمراً ضرورياً لاستمرار الحياة وبقاء النوع .

---

(١) لسان العرب مادة : شرع .

ولكن الذى يمكن أن نتصوره فى شرعة آدم هو أن الله يأمر بتوحيده وعبادته وحده لا شريك له ، وأن يأمر بالإحسان إلى الوالدين والنهى عن قتل النفس . هذه هى الأحكام التى يمكن أن تكون موجودة فى شرعة آدم ، ولا نتصور أن يكون هناك تحريم فى المأكولات أو المشروبات أو غير ذلك .

فالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، هو الحكم الأول الذى حكم الله به على عباده ، لذلك فإننا لا نرى دعوة أى رسول أو نبى إلا أن تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له كما فى دعوة نوح وصالح وهود (ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) .

والحكم الثانى فى التشريع هو الإحسان إلى الوالدين . لأن الله هو الأول ، هو الذى خلق الوالدين ، فله الحكم الأول بعبادته وحده لا شريك له ، فيكون هذا هو الحكم الأول فى حياة البشر ، فى حياة آدم وحواء ، ثم لما تناسلا وأصبح لهما ذرية ، أمر الله الأبناء بالإحسان إلى الوالدين ، لذلك فإن القضاء الأول فى كتاب الله هو ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء : ٢٣) . فيكون فى شرعة آدم : أول حكم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، والإحسان إلى الوالدين ، وأول تحريم هو تحريم قتل النفس .

فإذا انتقلنا إلى شرعة نوح فإن الأحكام سوف تزداد ، مع عدم نقض الأحكام السابقة . فالحكم بعبادة الله وحده لا شريك له ، والإحسان إلى الوالدين ، وتحريم قتل النفس ستكون ثابتة أيضا فى شرعة نوح ، ولكن هذه الشرعة سيزداد عليها أحكام أخرى مثل تحريم زواج الأخوة من أخواتهم ، ومثل الأمر بالقضاء بين الناس بالعدل وغير ذلك من الأمر بالمعروف .

وكانت الشرعات فى أول الأمر تركز على العقيدة ؛ تركز على وحدة الله وعدم الإشراك به .

وفى شرعة يعقوب ـ عليه السلام ـ كان الرجل يجمع بين الأختين ، فلما جاءت شرعة موسى ـ عليه السلام ـ حرَّم الله الجمع بين الأختين وهكذا استمرت الشرعات تتزايد فى الأحكام ، وهى تُبقى على ما أقره الله وكَتَبَه فى الشرعات السابقة ولا تنقض منها شيئا ، بل ظلت الأحكام تتزايد وتتنامى مع تطور الأمم وارتقائها ، فكلما نضجت البشرية وتقدمت ، أنزل الله

أحكاما تتناسب مع الظروف والأحوال .

وبدأت الأحكام تكتمل بنزول التوراة والإنجيل ، يقول تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (البقرة : ٨٣) .

[وهكذا القرآن ، فإنه قرر ما فى الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر ، ورد ذلك بيانا وتفصيلا ، وبين الأدلة والبراهين على ذلك ، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ، ورسالة المرسلين ، وقرر الشرائع الكلية التى بعثت بها الرسل كلهم ... وبيَّن ما حُرف منها وبدل ، وما فعله أهل الكتاب فى الكتب المقدسة ، وبيَّن أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التى نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة ، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حُرِّف منها .] (١)

فلما كان الإسلام هو خاتم الديانات ، أتم الله فيه الدين وأكمل شريعته وأتم نعمته على الناس جميعا .

وبالتالى ، فإن كل ما سبق على الإسلام من ملل يسمى شرعة ، لأنها لم تكن شريعة كاملة ، بل كانت الشرعات تتدرج فى الأحكام إلى أن اكتملت الأحكام فى الدين الإسلامى ، وبالتالى ، فإن الدين الإسلامى هو الشريعة الكاملة .

فالله ـ سبحانه ـ تكلم عن الملل التى سبقت الإسلام بأنها (شرعة) ، يقول تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ (المائدة : ٤٨). فلما تكلم عن الدين الإسلامى ، قال لرسوله ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الجاثية : ١٨) .

وباكتمال الدين وبإتمام الشريعة بانزال الكتاب على محمد ـ ﷺ ـ قال الله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

---

(١) فتاوى ابن تيمية ـ جـ١٧ صـ٤٤ دار التقوى للنشر والتوزيع .

تصديق الكتب بعضها لبعض

عندما يقول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ (البقرة : ١٢٩) يتضح من ذلك أن هذا الكتاب هو كتاب واحد يعلمة الأنبياء والرسل عن ربهم .

فالله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ (البقرة : ٨٧) ، ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ (مريم : ١٢) وقال عيسى ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ (مريم : ٣٠) .

وقال تعالى عن الأنبياء والمرسلين عامة ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ (البقرة : ٢١٣) .

ومعنى ذلك أن الكتاب واحد ؛ أى أن الأحكام واحدة لا تتغير ولا تتبدل ويؤكد الله ذلك فى آيات كثيرة . يقول تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ (المائدة : ٤٤) .

وفى تفسير هذه الآية ، يقول الإمام الشوكانى [قوله (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور) إستئناف يتضمن تعظيم التوراة وتفخيم شأنها وأن فيها الهدى والنور ، وهو بيان الشرائع والتبشير بمحمد ـ ﷺ ـ وإيجاب اتباعه ، قوله (يحكم بها الربانيون) هم أنبياء بنى إسرائيل ... و (الذين أسلموا) صفة مادحة للنبيين ، وفيه إرغام لليهود والمعاصرين له ـ ﷺ ـ بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام الذى دان به بمحمد ـ ﷺ ـ ... قوله (للذين هادوا) أنه يحكم بها النبيون للذين هادوا وعليهم ، والربانيون العلماء الحكماء ، والأحبار العلماء (بما استحفظوا من كتاب الله) : استحفظوا : أُمروا بالحفظ ، ، أى أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل ... (وكانوا عليه شهداء) أى على كتاب الله ، والشهداء : الرقباء ، فهم يحمونه عن التغيير والتبديل بهذه المراقبة] [(١)]

فالتوراة تحتوى على الأحكام التى حكم بها موسى بين بنى إسرائيل ، ثم جاء أنبياء بنى

---

(١) فتح القدير جـ٢ صـ٤٢ .

إسرائيل من بعد موسى فحكموا بها أيضا ، لأن الأحكام ثابتة لا تتغير ولا تتبدل لأنها من عند الله الواحد الأحد .

ولما أرسل عيسى ـ عليه السلام ـ إلى بنى إسرائيل قال ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ (الصف : ٦) . فعيسى عليه السلام جاء مصدقا لما فى التوراة مما لم يُحَرَّف . ولما كان هناك أنبياء جاءوا من بعد موسى لبنى إسرائيل ، ثم جاء عيسى ـ عليه السلام ـ لهم بالإنجيل قال الله ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة : ٤٦) .

فعيسى ـ عليه السلام ـ جاء مصدقا لما وجده عند بنى إسرائيل من التوراة ولما آتاه الله الإنجيل كان هو الآخر مصدقا لما كان موجودا من التوراة .

ولأنه لا تعارض بين الكتب التى أنزلها الله على رسله ؛ ولا تعارض بين التوراة والإنجيل والقرآن ، فإن الله يقول ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (المائدة : ٦٨) أى أنكم لستم على شىء من الدين ، إلا أن تعملوا بالأحكام التى جاءت فى التوراة والإنجيل وجميع ما أُنزل إليكم من ربكم بها فى ذلك القرآن . وهذا يدل على عدم التعارض بين الكتب وبعضها . وأكثر من ذلك ، فإن الله يقول ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة : ٤٣) وفى ذلك [تعجيب له ـ ﷺ ـ من تحكيمهم إياه مع كونهم لا يؤمنون به ولا بما جاء به ، مع أن ما يحكمونه فيه هو موجود عندهم فى التوراة] (١)

فكيف يأتى اليهود إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ويطلبون منه أن يحكم بينهم بما أنزل الله عليه ، مع أن الذى أُنزل عليه هو موافق ومصدق لما عندهم من التوراة .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ﴾ (النساء : ٤٧) . فالقرآن الذى أُنزل على محمد ـ ﷺ ـ مصدق لما مع أهل

---

(١) السابق .

الكتاب من التوراة والإنجيل .

ويتحدث الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن القرآن أو عن الكتاب الذى أُنزل على محمد ـ ﷺ ـ بأنه مصدق لما بين يديه من الكتاب ، ولا يخصص التوراة والإنجيل فقط بل كل ما نزل من الكتاب سابقا ، فيقول تعالى ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (الأنعام : ٩٢) أى مصدق لجميع الكتب المنزلة السابقة عليه ما دامت لم يصبها شىء من التحريف .

والله ـ سبحانه ـ أنزل آخر كتبه وجعله رقيبا وحفيظا وحارسا ومهيمناً على الكتب السابقة عليه فقال ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة : ٤٨) .

فكلمة (الكتاب) الأولى تعنى القرآن الكريم . وكلمة (الكتاب) الثانية أطلقها الله عامة ولم يخصصها للتوراة أو الإنجيل أو هما معا ـ كما خصصها فى آيات سابقة ، ولكنه جعلها كلمة عامة لتشمل كل ما أنزله من الكتاب فى رحلة الأحكام والتشريع التى بدأت منذ أن خلق الله الإنسان وحتى مبعث الرسول .

وفى تفسير هذه الآية يقول الإمام الشوكانى [قوله (وأنزلنا إليك الكتاب) خطابا لمحمد ـ ﷺ ـ والكتاب القرآن ، والتعريف للعهد ، و (بالحق) : أى متلبسا بالحق و (مصدقا لما بين يديه) أى أنزلنا إليك يا محمد القرآن حال كونه متلبسا بالحق وحال كونه مصدقا لما بين يديه من كتب الله المنزلة لكونه مشتملا على الدعوة إلى الله والأمر بالخير والنهى عن الشر (ومهيمنا عليه) عطف على (مصدقا) ، والضمير فى (عليه) عائد إلى الكتاب الذى صدقه القرآن وهيمن عليه . والمهيمن : الرقيب ؛ وقيل : الغالب المرتفع ؛ وقيل : الشاهد ، وقيل : الحافظ ؛ وقيل : المؤتمن .

والمعنى على قراءة الجمهور : أن القرآن صار شاهدا بصحة الكتب المنزلة ومقررا لما فيها مما لم يُنسخ وناسخا لما خالفه منها ، ورقيبا عليها وحافظا لما فيها من أصول الشرائع وغالبا لها لكونه المرجع فى المحكم منها والمنسوخ ، ومؤتمنا عليها لكونه مشتملا على ماهو

معمول به منها وما هو متروك][1] .

فالله ـ سبحانه ـ أنزل آخر كتبه (القرآن) وضمَّنه ما هو موجود ومنزل من (الكتاب) على الأمم السابقة ، وحفظه الله من التحريف والتزييف وحفظه من أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، وحصنه الله وأتقنه وأحكمه ، فلا يستطيع مبطل أن يدخل إليه ليقول ما ليس فيه ، بل وجعل القرآن ـ بالإضافة إلى هيمنته على ما سبقه من الكتاب ـ جعله مهيمنا بذاته على ذاته ، فيصدق بعضه بعضا ولا يتعارض ولا يتناقض مع ذاته لأنه ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ (هود : ١) ، ولأن الله يقول ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر : ٩) وكما يقول تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت) .

إذاً ، فالكتب السابقة ـ كما أنزلها الله وإذا لم يدخل إليها التحريف والتزييف لا تتعارض مع آخر كتب الله (القرآن) ، بل إنها إذا عُرضت على القرآن فإن القرآن سوف يصدق عليها ، لأن الأحكام الموجودة فى القرآن هى الأحكام الموجودة فى الكتب السابقة .

إذاً ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يبدل أحكامه ولم يغيرها حتى فى الملل أو الديانات السابقة ، بل هى ظلت تنتقل من أمة إلى أمة فى كتاب الله حتى اكتملت الأحكام وتمت الشريعة بآخر الرسالات السماوية وخاتمتها ، وبعد أن أكمل الله الدين لبنى الإنسان وأتم نعمته عليهم بخاتم رسله وخاتم كتبه قال ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

ويصدق الله ـ سبحانه وتعالى على كتبه التى أنزلها ولا اختلاف بينها فيما أمر وحكم ، وأن علينا أن نؤمن بجميع ما أنزل الله من كتب ، لأنها أنزلت من كتاب واحد هو الكتاب الأصل الذى عند الله . وأن هذه الكتب ما هى إلاكتاب واحد ، ولكنه كان ينزل على كل رسول بمجموعة من الأحكام ، فإذا نزل الكتاب على نبى لاحِق ، زاد الله فى الكتاب أحكاما أخرى وهكذا حتى تمت الأحكام وكملت الشريعة بالرسالة الخاتمة على خاتم الرسل ـ ﷺ .

---

(١) السابق صـ ٤٨ .

ولأن هذه الكتب هى كتاب واحد اكتمل بنزوله على محمد ـ ﷺ ـ لذلك فإن الله يقول ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

ثم إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ (النساء : ٢٦) . ومعنى هذا أن سنن الذين من قبلنا هى نفس السنن التى أنزلها الله فى كتابه ، وأن نفس الأحكام السابقة فى الملل الأخرى هى الأحكام الموجودة فى كتاب الله لم يبدلها ولم يغيرها ، لأنه (لا تبديل لكلمات الله) ، ولأنه يقول تعالى ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾ (ق : ٢٩) .

خلاصة البحث فى هذا الفصل

١ ـ أن الشرائع كلها نزلت من كتاب واحد ، هو الكتاب الأم الذى عند الله ، وهذا الكتاب كتاب محكم حكيم ، وبالتالى فإن جميع الشرائع التى نزلت منه هى شرائع محكمة متقنة ، لا اختلاف بينها ولا تعارض ، وبالتالى فهى لا تتغير ولا تتبدل ولكنها ثابتة إلى يوم الدين .

٢ ـ أن هناك فرقاً بين (الشرعة) وبين (الشريعة) ، فالشرعة هى ابتداء الطريق ؛ وهى من الشروع ؛ أى من البدء فى الفعل ، وبالتالى فإن الشرعة هى ابتداء فى التشريع ؛ وهذا يوحى بعدم الإكتمال إلا بعد إتمام السير فى الطريق ، فإذا تم اكتمال طريق التشريع فإننا نصل إلى الشريعة . فالشريعة هى اكتمال الدين ، فى حين أن الشرعة هى ابتداءفى طريق التشريع ، وبالتالى فإن الشريعة الإسلامية هى اكتمال الدين وإتمام النعمة ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ (المائدة : ٣) .

٣ ـ أن الكتب التى أنزلها الله على رسله يصدق بعضها بعضا ، وبالتالى فإن أحكامها واحدة لا تناقض بينها ولا اختلاف . وأن القرآن الكريم هو الكتاب المصدق لهذه الكتب والمهيمن عليها والحافظ لها من التحريف والتبديل ، وأنه هو الحاوى لما فى هذه الكتب من شرائع والحافظ لها ، وبالتالى ، فلا صحة لدعوى نسخ الشرائع السابقة .

obeikandl.com

الفصل الثامن

طلاقة النص

مقدمة

النسخ يؤدى إلى تعطيل كتاب الله .

العلاقة بين الروح القرآنى والروح الإنسانى .

تنزيل الأحكام على الواقع .

قراءة النص (الروح القرآنى) .

قراءة الواقع وفهمه .

تنزيل النص تنزيلا حكيما على الواقع .

أمثلة على كيفية تنزيل الأحكام على الواقع .

حكم النهى عن زيارة القبور .

حكم حبس لحوم الأضاحى .

طلاقة النص وإطلاق الفكر والعمل .

كيفية إطلاق النص .

الطريقة الأولى : (نفس الآية مُقيِّدة ومُطلِقة لحركة الفكر والعمل).

الطريقة الثانية : (التقيد والإلزام فى آية ، والإطلاق بآية أخرى .)

طلاقة النص فى قوله تعالى (ولله المشرق والمغرب)

طلاقة النص فى آيات الوصية .

طلاقة النص فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته).

طلاقة النص فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ...).

طلاقة النص فى قوله تعالى (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) .

طلاقة النص فى قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر ...) .

خلاصة البحث فى هذا الفصل .

obeikandl.com

مقدمة

ليس هناك نص فى كتاب الله يدل على أن الله نسخ آيات بعينها ـ بمعنى أبطلها وأوقف العمل بها ـ كما أنه ليس هناك نص نبوى يدل على أن الرسول ـ ﷺ ـ قال إن آية كذا نُسخت وأُبطل العمل بها . وإنما دعاوى النسخ هى دعاوى شخصية ناتجة عن فهم المدعى. وليس من حق أى إنسان مهما كانت مكانته أن يدعى أو يقول أن آية كذا هى آية منسوخة ولم يعد يصح العمل بها .

كما أنه ليس من حق أى إنسان أن يقول بأن كتاب الله فيه تعارض وتناقض بين بعض الآيات ، ولذلك فإننا نلجأ إلى النسخ ـ بمعنى الإبطال ـ لكى نبطل نصاً ونُعمل النص الآخر ودفع التعارض بينهما .

فالذين قالوا بأن كتاب الله فيه تناقض وتعارض بين الآيات ولذلك فإنه لكى يتم دفع هذا التعارض بين النصين فإنه يتم إبطال أحدهما وإعمال الآخر ، أقول : الذين قالوا بذلك عَمِيَتْ أبصارهم عن قراءة قول الله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢) ، وقوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود : ١) وقوله تعالى ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾(يونس : ١) ، وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت) .

فإن كان كتاب الله قد وصف كتابه بالإحكام والإتقان ، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكيف أباح القائلون بالنسخ لأنفسهم أن يُعطلوا ويبطلوا آيات الله ؟

إن [من المزالق التى تذكر ... فى فهم القرآن وتفسيره : إدعاء النسخ لآية من آياته ، بلا برهان يقينى يوجب هذا النسخ ، فإنما أنزل الله هذا الكتاب ليعمل به وتنفذ أوامره ، وتجتنب نواهيه وتحترم حدوده ...

والأصل فى آيات القرآن : أنها محكمة باقية لازمة ملزمة لكل من آمن بالله ورسوله ، ولا يجوز الخروج عن هذا الأصل إلا بيقين لا شك فيه ولا احتمال معه .أما دعوى نسخ الآية أو بعض آية ، بلا دليل قاطع فهى مرفوضة] [١] .

فكتاب الله كتاب خالد ، وآياته آيات محكمة وهى تعمل فى كل زمان ومكان ، ولا يحق لأى إنسان مهما بلغت مكانته أن يبطل آية من آياته .

ولقد ادعى القائلون بالنسخ أن بعض الآيات نُسخت لزوال ظروفها ، فلقد ادعوا بأن [بعض الآيات ـ التى كانت فى مرحلة من المراحل تشكل حلا لمشكلة قائمة ، أو تنزلت على حادثة بشرية قائمة ، وقدمت لها حلا ، ثم حينما ارتقى المجتمع وجاءت مرحلة أخرى قالوا : بأن الآية السابقة نُسخت ، مع أن المجتمعات تتكرر فيها مثل هذه الحالة السابقة التى كانت .] [٢]

إن القول بأن هذه الآية التى نزلت لأجل ظرف معين نُسخت ، يعنى أن هذه الحالة أو هذا الظرف لن يتكرر فى أى زمان أو مكان آخرين ... فهل هذا صحيح ؟ هل لن تتكرر الأحوال والظروف مرة أخرى ؟

وإذا كان الإنسان قرين هذه الأحوال والظروف ، وحياته ممتدة فى الزمان والمكان إلى ماشاء الله ، فكيف نقول بأن هذه الآية نُسخت ، ونقول فى نفس الوقت بأن القرآن خالد؟

[إذا اعتبرنا أن بعض الآيات نُسخت لأن الحالة التى جاءت من أجلها انتهت فى المجتمع العربى الأول ـ مجتمع الجزيرة العربية فى عهد النبوة ـ فكيف يمكن أن يكون الإسلام خالدا مع هذا الإعتقاد ؟] [٣]

ويجيب الشيخ الغزالى على ذلك قائلا : [إن المجتمع القديم الذى نزل فيه القرآن هو مجتمع بشرى ، وأحواله صورة مما يعترى البشرية على امتداد الزمن إلى انتهاء الحياة ، فالحكم فى أى صورة من هذه الصور هو حكم بطبيعته ممتد ، لأنه ليس خاصا بهذه الصورة ، بل هو يتجدد مع كل صورة مشابهة لها إلى قيام الساعة ... وفى تصورى أن

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن العظيم .صـ٣٢٦ د . يوسف القرضاوى .

(٢) كيف نتعامل مع القرآن . صـ٨٠ د . عمر عبيد حسنة .

(٣) السابق صـ٧٨ .

البشرية لن تخلو على امتداد الزمن من نفس الحالات البشرية التى رأينا خلال زمن النبوة][1] .

النسخ يؤدى إلى تعطيل كتاب الله

تمادى القائلون بالنسخ فى إبطالهم لآيات كتاب الله مدعين أن هذه الآيات نسخت وأُبطلت ، ومن أشهر دعاويهم ، قولهم بأن آية السيف نسخت أكثر من مائة وعشرين آية .

وإذا كان القول بالنسخ هو رأى شخصى ناتج عن فهم ذاتى لهذا الشخص ، وليس هناك دليل فى كتاب الله على أن النسخ هو نسخ أحكام أو آيات ، فإن ذلك يجعل الباب مفتوحا دائما لكى يقول كل شخص برأيه : إن هذه الآية منسوخة .

وهكذا تظل الآراء الشخصية تُبطل فى آيات كتاب الله إلى أن يتم تعطيل كتاب الله عن العمل تماما .

[إن مفهوم النسخ بأن آخر ما فعل الرسول ـ ﷺ ـ وآخر ما نزل من القرآن قد ألغى ونسخ ما سبق من تشريع وتنزيل وأحكام إنما هو فى الحقيقة إلغاء لمعنى ختم الرسالة وأبدية توجهها][2]

والنسخ ـ بمعنى الإبطال والتعطيل ـ يؤدى كذلك إلى تقييد حركة الفكر الإسلامى . فالقائل بالنسخ لا يدرك معنى النص ، كما أنه لا يدرك الظرف الذى من أجله نزل النص .

فإذا كان النسخ يثبت الأحكام اللاحقة الجديدة ويلغى الأحكام السابقة فإن [هذا الإلغاء لا يأخذ بالضرورة الظرف الذى يدور حوله الحكم ، والحكمة من تشريع الأحكام السابقة وإعطاء ذلك الأمر الإهتمام والتحليل اللائق به ، وبذلك يكون مفهوم النسخ فى الشريعة الإسلامية هو أقرب إلى مفهوم النسخ فى الأحكام الوضعية التى يلغى الحكم اللاحق فيها الحكم السابق][3]

فالقائلون بالنسخ لا يدركون الطبيعة المطلقة لكتاب الله ، ويتعاملون معه وكأنه مثل الكتب السابقة عليه ، مؤقت بوقت ، ومتعين لمكان . كما أنهم ظنوا أن الخطاب هو خطاب

---

(١) السابق .

(٢) أزمة العقل المسلم صـ٩٠ .

(٣) السابق صـ٨٥ .

لأهل الجزيرة فى زمن النبوة فقط ، ولم يدركوا عالميته وأبديته وطلاقته وتحرره من قيود الزمان والمكان .

وطبيعة القرآن المطلقة وتحرره من قيود الزمان والمكان هى من أسباب خلوده وعبقريته، و [خلود القرآن يعنى : أن القرآن قادر على الإستجابة لكل الحالات وفى الظروف كلها ... وكما أن الآيات خالدة ، فإن المشكلات خالدة ، حتى يكون هناك توازٍ بين المشكلات والآيات] (١)

وإذا كان القرآن قد نزل ليغيّر من بيئة الجاهلية العربية ، فليس معنى ذلك أنه نزل خاصا بهذه البيئة دون غيرها ؛ إنما جعل الله هذه البيئة الجاهلية مثالا لكل جاهلية فى كل زمان ومكان .

والفرق بين بيئة الجاهلية العربية أثناء البعثة ، وبين أى بيئة جديدة تالية هى [أن الجاهلية العربية كانت نجوم القرآن تنزل عليها لمعالجة أزماتها وتحويلها إلى الإسلام . فالنزول القرآنى يأتى بعد أن تقوم الأزمة فى البيئة ، وتصوغ البيئة السؤال ، وتنتظر الوحى ، أما فى العصور التالية لعصر التنزيل على الملتقى الأول ـ ﷺ ـ فإن القرآن كله موجود ، وعلى البيئة ذات الأزمة ـ أية بيئة ـ أن تصوغ أزماتها فى شكل أسئلة محددة ، وتتجه إلى القرآن المجيد بها ، ضارعة مفتقرة ، وتطّرح بين يديه ... لتحصل منه على الجواب] (٢)

العلاقة بين الروح القرآنى والروح الإنسانى

القرآن الكريم هو روح الله المرسل إلى الإنسان ، يقول الله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (الشورى ٥٢) .

ومن أهم صفات الروح : الطلاقة والحرية وانعتاقها من كل جمود وتحجر . وقيل أن الروح هى [الرحمة ، وقيل : الهداية لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا الأبدان بالأرواح] (٣)

---

(١) كيف نتعامل مع القرآن د. عمر عبيد حسنة صـ٧٨.

(٢) النص القرآنى ـ وليد منير ـ مقدمة د . طه العلوانى صـ١١ .

(٣) فتح القدير جـ٣ صـ١٤٧ .

فروح الله (القرآن الكريم) : رحمة ، لأنه يهدى الضالين ويرشد الحائرين ويدل الباحثين عن الحقيقة إليها ، ويبين الحق لمن تختلط عليهم الأمور . وهو الكتاب الحق ، نزل بالحق ، ولا يحتوى إلا على الحق . فمن أراد الحق ، فعليه أن يتوجه إلى هذا الكتاب يطرح أسئلته عليه ويتلقى منه الجواب .

وهو الكتاب المبين ، كما قال تعالى ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (الشعراء ٢) . يبين للناس ما غمض عليهم ويوضح لهم ما تفرقوا واختلفوا فيه ، كما أنه بيان لكل شيء ، كما قال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل : ٨٩) . وهو الهدى كما قال تعالى ﴿ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى ﴾ (آل عمران : ١٣٨) .

والروح الإنسانى ـ أى الفكر الإنسانى ـ إذا أراد أن يعرف الحقيقة فعليه أن يتوجه إلى كتاب الله ؛ أى الروح القرآنى ، وإذا أراد أن يستبين عن أى شيء ، فعليه أن يطلب هذا البيان من كتاب الله ، وإذا أراد الهدى ، فلا يستهدى إلا بكتاب الله .

والروح الإنسانى ؛ أو الفكر الإنسانى لكى يستقيم فى الحياة فعليه أن يتوجه إلى الروح القرآنى يأخذ منه التعاليم والأوامر ويستفتيه فى الأحكام ويستهديه .

والروح القرآنى هو خطاب الله المتجدد الدائم الخالد إلى الإنسان . وهو كما وصفه رسول الله ـ ﷺ ـ (كتاب الله فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن أراد الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ..) .

والروح الإنسانى عليه أن يكون دائم التردد على الروح القرآنى ، كلما عنَّت له مشكلة، أو خطرت عليه مسألة . كما يجب على الروح الإنسانى أن يطابق بين أفعاله وبين ما جاء به الروح القرآنى ؛ أى أن الروح الإنسانى عليه أن يتطابق فى أفعاله وتوجهاته مع تعاليم الروح القرآنى ، وهذه هى الغاية من إنزال الكتاب : إلزام الروح الإنسانى بتعاليم الروح القرآنى وتطبيق ذلك عمليا ، كما سُئلت السيدة عائشة عن أخلاق رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت : كان خلقه القرآن ، وكأنه كان قرآنا يمشى على الأرض .

تنزيل الأحكام على الواقع

قلنا فيما سبق أنه يجب أن تكون هناك حركة ثنائية بين الروح الإنسانى والروح القرآنى،إذا ما أراد الروح الإنسانى الوصول إلى الحق ومعرفة الصواب .

وفى مجال تنزيل الأحكام على الواقع ، فإن الروح الإنسانى يكون معنيا بثلاثة أمور :

الأمر الأول : قراءة النص (الروح القرآنى ـ الوحى) .

الأمر الثانى : قراءة الواقع وفهمه (قراءة الكون) .

الأمر الثالث : تنزيل النص تنزيلا حكيما على الواقع .

فبما أن الروح الإنسانى مكلف بتحقيق الروح القرآنى فى الواقع ، إذاً ، فعلى الروح الإنسانى أن يدرك ويعى ويفهم كل من الروح القرآنى والواقع .

الأمر الأول : قراءة النص (الروح القرآنى ـ الوحى)

الغرض من هذا الأمر هو تحصيل العلم . فلا شك أن كتاب الله هو كتاب العلم ، ومهمة الروح الإنسانى (الفكر) فى هذه المرحلة هو تحصيل العلم والتعرف على مراد الله تمهيدا لتحقيق هذا المراد فى الواقع . إذْ أن الهدف من إنزال الكتاب هو أن يتحقق به الإنسان فى الواقع .

فى هذه المرحلة ، فإن مهمة الروح الإنسانى أو الفكر هى استبيان مراد الله فى هذا النص ومعرفة ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى تعاملاته مع أفراد الوجود كله بلا استثناء ، باعتبار أن الإنسان يعيش مع أفراد جنسه ومع باقى أفراد الوجود كله . فمهمة الفكر الإنسانى فى هذه المرحلة هو تحصيل العلم .

فوظيفة الروح الإنسانى هو دوام النظر والتوجه والرجوع إلى الروح القرآنى لمعرفة مراد الله تعالى ومعرفة أوامره ونواهيه ، وطرح الأسئلة والإستفهامات ، والتدبر فى الروح القرآنى للحصول على الإجابات دون تدخل الأهواء الذاتية ، على أن تكون هذه الإجابات تتفق مع الروح العامة الكلية للروح القرآنى (الوحى) .

وهذا العلم هو المقصود فى آيات الله تعالى مثلما حكى عن يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (يوسف : ٢٢) وقوله تعالى عن لوط ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (الأنبياء : ٧٤) وقوله عن موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ

ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (القصص : ١٤) وقوله عن عيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (المائدة : ١١٠) .

والمقصود بالعلم هو التحصيل النظرى فقط وليس التطبيق العملى . فالعلم هو حصول صورة الشيء فى الذهن وليس تحقيقه فى الواقع الخارجى ، أى أن العلم هو ما يصبح مفهوما فى الذهن بغض النظر عن تحققه فى الواقع الخارجى .

الأمر الثانى : قراءة الواقع وفهمه

المهمة الثانية التى يقوم بها الروح الإنسانى (الفكر) فى الوجود هى : قراءة الواقع ودراسته وفهمه .

والواقع هو الوسط أو البيئة التى يحيا فيها الإنسان ويتعامل مع أفرادها . وأفراد البيئة هى كل ما يحيط بالإنسان من أفراد جنسه وأفراد العالم الطبيعى ككل .

ولقد آثرنا ألفاظا مثل الواقع والبيئة على ألفاظ مثل العالم والكون ، لأن الألفاظ الأولى (الواقع والبيئة) أكثر التحاما بالإنسان فى الحياة الواقعية عن الألفاظ الأخرى (العالم والكون) . لأن لفظتى العالم والكون تدلان على كل ما هو موجود فى الوجود ، سواء كان الإنسان ملتحما به ومتعاملا معه ، أم لا . أما لفظتا الواقع والبيئة ، فإنهما تدلان على كل ما هو واقع وملتحم مع وجود الإنسان .

فالبيئة هى كل ما يحيط بالإنسان من عوالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكل ما يؤثر عليه من الظواهر الطبيعية من ليل ونهار وكسوف وخسوف ورعد وبرق ومطر وجفاف ورياح وغير ذلك مما يؤثر على حياة الإنسان .

كما أننا آثرنا لفظتى الواقع والبيئة لأنهما يختلفان من بيئة لأخرى من حيث المكان ، كما أن الواقع نفسه يختلف من زمان لآخر فى نفس المكان وعلى نفس الإنسان .

فإذا ضربنا مثلا بإنسان يعيش فى بيئة معينة ، فإن هذا الإنسان فى زمان معين يكون عائشاً فى أحوال مستقرة وظروف آمنة ، ثم يأتى عليه زمان آخر فتنقلب ظروفه إلى الأسوأ والأصعب . فهنا يكون الإنسان واحداً ولكن الواقع أو البيئة التى يحيا فيها اختلفت من حيث تأثيرها عليه . وبالتالى فإن الروح الإنسانى (أى : الفكر) عليه قراءة هذه المتغيرات ودراستها وفهمها من أجل ايجاد الحلول المناسبة لمعيشته .

الأمر الثالث : تنزيل النص تنزيلا حكيما على الواقع

الإنسان هو الوسيط الواصل بين الله والكون ، أى أن الروح الإنسانى (الفكر) عليه أن يقوم بتحقيق الإرادة الإلهية فى الواقع ، ، وهذا الفعل هو معنى الإستخلاف .

فمعنى الإستخلاف هو أن يقوم الإنسان بتحقيق مرادات الله فى الوجود .

وتحقيق هذه المرادات لا يكون بالأهواء النفسية أو الآراء الذاتية ، ولكن أخذاً من الروح القرآنى . فالروح القرآنى ـ كما قلنا ـ هو روح الله المرسل إلى الإنسان ، والمتخاطب معه على الدوام وباستمرار .

وبعد أن يكون الروح الإنسانى (الفكر) قد فهم المراد الإلهى من الروح القرآنى وفهم الواقع المحيط به عليه أن يُنزل المراد الإلهى على الواقع تنزيلا حكيما .

وإذا كان الإنسان هو خليفة الله ، وكما قلنا أن معنى الإستخلاف هو تحقيق المراد الإلهى فى الواقع ، إذاً ، فالإنسان عليه أن يحكم بين الأشياء بالعدل ، ولكى يتم له ذلك عليه أن يكون فاهما جيدا للنص القرآنى وكذلك الواقع الذى سيتم إنزال النص أو الحكم عليه ، فإذا وُفِّق الإنسان إلى الفهم الصحيح للنص والواقع وأنزل الحكم المناسب على واقعه ، يكون فى هذه الحالة حاصلا على الحكمة .

[فالحكم والحكيم وهما بمعنى الحاكم : هو الذى يحكم الأشياء ويتقنها .

وقيل : الحكيم : ذو الحكمة . والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

والحكيم : العالم وصاحب الحكمة .

والحكمة : العدل ، وأحكم الأمر : أتقنه] (١)

فالحكيم هو الذى يُحكم الأشياء ويتقنها ، ولا يستطيع ذلك إلا عن علم ، وهو العلم النظرى الذى حصَّله من قراءة النص (الروح القرآنى) ، وكذلك قراءة الواقع .

فتحصيل الحكيم للعلم هوالذى يجعله يعلم أفضل وضع للشىء ، فهو يضع الشىء المناسب فى المكان المناسب ، فإذا تم ذلك فإنه يكون قد حكم بين الأشياء بالعدل .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لعيسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (المائدة : ١١٠) فالكتاب هنا هو المقصود بتحصيل العلم النظرى الموجود فى الروح القرآنى أما الحكمة فهى الإتقان فى إنزال أحكام الروح القرآنى على الواقع .

---

(١) لسان العرب مادة : الحكم .

وكما يقول الله تعالى عن النبيين ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة : ٢١٣) . فالكتاب هنا هو محتوى العلم النظرى للأحكام .

وفى قصة سيدنا داوود ـ عليه السلام ـ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ (ص : ٢٠) ، وقيل : [المراد بالحكمة : النبوة والمعرفة بكل ما يحكم به ، وقال مقاتل : الفهم والعلم . وقال مجاهد : العدل . وقال أبو العالية : العلم بكتاب الله ... والمراد بفصل الخطاب : الفصل فى القضاء] (١)

والحكمة هى كل ما قيل سابقا . فهى العلم بكتاب الله وفهمه والحكم به بين الخلق . والخلافة هى الحكم بما أمر الله ، كما قال تعالى لداوود ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ (ص : ٢٦) .

فالروح الإنسانى (الخليفة) هو الحكيم الحاصل على العلم من كتاب الله والكاشف لحقائق الواقع والحاكم على هذا الواقع بما علم من كتاب الله .

فمعرفة الواقع وكشفه ، ومعرفة الحقائق والظروف والأحوال لهذا الواقع عمل مهم وضرورى قبل تنزيل الحكم عليه .

والروح القرآنى(الوحى) ـ كنص مكتوب ـ ثابت لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحرف ، ولكن الظروف والأحوال المحيطة بالإنسان هى التى تتغير وتختلف ، وكلما تغيرت الظروف والأحوال فإنه من الحكمة البحث عن الحكم المناسب للظرف أو الحال الجديد .

فإنه [متى تحققت مقومات حال ، لزم التصرف فيه وفق التوجيه الإسلامى فى ذلك الحال ، ومتى تغير الحال إلى حال آخر ، لم يبق معنى للإصرار على الحال السابق ، ولزم التحول إلى الحكم والتوجيه المتعلق بالحال الجديد] (٢)

وهذا يوضح لنا توهم القائلين بالنسخ بأن هناك آيات منسوخة فى كتاب الله ، ظنا منهم بأن هذه الآيات كانت لها ظروفها ، وأن هذه الظروف ولّت ولم تعد ولن تعود . ولم يدركوا بأن الظروف والأحوال تتوالى وتتجدد على الإنسان .

---

(١) فتح القدير جـ٤ صـ٤٢٥ .

(٢) أزمة العقل المسلم صـ٩٠ .

كما أنهم قالوا بالنسخ لعدم قدرتهم على فهم النص وفهم الواقع والعلاقة بينهما ، فأخطأوا فى تنزيل الحكم على الحادثة أو على الواقع . كما أنهم ـ إذا لم يستطيعوا أن يوفقوا بين نصين ، أو توهموا وجود خلاف بينهما ـ قالوا : إن الآتيين متعارضتان أو متناقضتان .

أمثلة على كيفية تنزيل الأحكام على الواقع

تكلمنا فيما سبق عن تنزيل النص تنزيلا حكيماً على الواقع . وقلنا أنه إذا كان الإنسان هو خليفة الله ، وأن معنى الخلافة هو تحقيق مرادات الله فى الواقع ، إذاً ، فعلى الإنسان أن يحكم بين الأشياء بالعدل ، ولكى يتم له ذلك ، فعليه أن يتصف أولا بصفات الله ، أى عليه أن يكون حاكما عادلا حكيما عليما بصيرا . لأن الحكم يحتاج إلى العلم ، والعلم وسائله السمع والبصر والفؤاد . فالحكم بدون علم وبدون بصيرة هو حكم طائش وجائر. أى أن من صفات الحاكم أن يكون عالما حكيما .

وقلنا أن الروح الإنسانى (الفكر) أو الخليفة عليه ـ قبل أن ينزل الحكم ـ أن يقرأ الروح القرآنى ويتعرف على مراد الله من النص ، كما عليه أن يقرأ الواقع قراءة جيدة ، ثم بعد ذلك عليه أن ينزل الحكم المناسب على هذا الواقع لكى يكون هذا التنزيل تنزيلا حكيما أى متقناً وعادلاً .

وخير مثال لنا فى (الحكيم) الذى ينزل الحكم على الواقع تنزيلا حكيما هو رسول الله ـ ﷺ . وسوف نستعرض حكمين من أحكامه ، ظن القائلون بالنسخ أن هذه الأحكام نُسخت بأحكام بعدها . وهذان الحكمان هما : حكم زيارة القبور ، والحكم الخاص بلحوم الأضاحى .

حكم النهى عن زيارة القبور

[عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فقد أُذن لمحمد فى زيارة قبر أمه ، فزوروها فإنها تُذكِّر بالآخرة] [1]

[عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ نهيتكم عن زيارة القبور، فمن أراد أن يزور فليزر ، ولا تقولوا هُجرا .

هُجرا : ما لا ينبغى من الكلام : فُحشا] [2]

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب الجنائز ـ باب ٦٠ ـ حديث رقم : ١٠٥٤ .

(٢) سنن النسائى .

[وكان النهى ابتداءً ، لقرب عهدهم بالجاهلية ، وفى الوقت الذى لم يكونوا يتورعون فيه عن هُجر الكلام وفحشه ، فلما دخلوا فى الإسلام واطمأنوا به وعرفوا أحكامه ، أذن لهم الشارع بزيارتها] (١)

[عن أبى هريرة ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ لَعَنَ زوارات القبور .

وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يُرخِّص النبى ـ ﷺ ـ فى زيارة القبور ، فلما رخص دخل فى رخصته الرجال والنساء .

وقال بعضهم : إنما كُره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن وكثرة جزعهن] (٢) .

فالرسول ـ ﷺ ـ فى أول عهد الإسلام نهى المسلمين الأوائل عن زيارة القبور ، لِمَا كان يصدر عنهم من مظاهر الشرك ، فقد كانوا يتوسلون إلى الله بالميت ، ويُقسمون على الله به ويسألونه بقضاء حوائجهم . كما أن النساء كن يصدر عنهن مظاهر جاهلية ، من تمجيد للميت وتعظيم له وغير ذلك من مظاهر الشرك والجاهلية ، ولهذا السبب نهاهم الرسول عن زيارة القبور . فلما عرف المسلمون الأحكام ودخل فى قلوبهم الإيمان واستنارت عقولهم ، وطهَّر الإسلام قلوبهم من الشرك ومن الجاهلية ، واطمأن رسول الله ـ ﷺ ـ بأنهم إن زاروا القبور فلن تصدر عنهم مظاهر شرك وجاهلية ، أباح زيارة القبور ، لأنها تذكر بالآخرة .

وهنا نرى الحكمة فى تنزيل الحكم على الواقع ، فإذا كان الحكم سيؤدى إلى ضرر أُبطل الحكم ، وإذا أدَّى إلى النفع ، أُعمل الحكم .

حكم حبس لحوم الأضاحى

[عن عمرة بنت عبد الرحمن ، قالت : سمعت عائشة تقول : دَفَّ ناس من أهل البادية حضْرةَ الأضحى فى زمان رسول الله ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ إد خروا الثلث وتصدقوا بما بقى ، قالت : فلما كان بعد ذلك ، قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ يا رسول الله : لقد كان الناس ينتفعون من ضحايا هم ويجملون منها الوَدْك ، ويتخذون منها الأسقية ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ وما ذاك ؟ أو كما قال ، قالوا : يا رسول الله : نهيت عن إمساك لحوم الضحايا بعد ثلاث ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ إنما نهيتكم من أجل الدافَّة التى دفَّتْ عليكم فكلوا وتصدقوا وادخروا .

---

(١) فقه السنة ـ سيد سابق ـ جـ١ صـ٣٠٦ الفتح للإعلام العربى .

(٢) سنن الترمذى ـ كتاب الجنائز ـ حديث رقم : ١٠٥٦

معنى الحديث : دفَّ ناس : أقبلوا من البادية . والدف سير سريع وهم دافَّة : أى جماعة يدفون ، وإنما أراد قوما أقحمتهم السنة وأقدمتهم المجاعة .

يقول : إنما حرمت عليكم الإدخار فوق ثلاث لتواسوهم وتتصدقوا عليهم فأما وقد جاء الله بالسعة ، فادخروا ما بدا لكم ، واتجروا : أى تصدقوا . الوَدْك : الشحم

حضْرةَ الأضحى : أى وقت حضوره] [1]

فالرسول ـ ﷺ ـ لما رأى فى الواقع أن هناك مجاعة والناس يحتاجون للطعام ، والأيام هى أيام عيد الأضحى ، وهى كما قال ـ ﷺ ـ [ألاَ وإن هذه الأيام ، أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل] [2] فأراد أن يضمن وصول اللحم إلى كل الناس ولا يستأثر بها الأغنياء أو القادرون فقط ، فأراد أن يعم الخير الجميع ، فنهاهم عن الإدخار حتى لا يستأثروا باللحوم لأنفسهم ، وينسوا غيرهم .

فلما جاء عام آخر ، وكان عام خير وافر ، ورأى ـ ﷺ ـ ضمان وصول لحم الأضاحى إلى جميع الناس مع زيادة ووفرة ، أمرهم بالإدخار .

فالمشرع الحكيم قرأ الواقع قراءة جيدة حكيمة وأنزل عليه الحكم المناسب له .

وليس فى هذا نسخ لأحكام ، وإنما حركة ثنائية بين الفكر والواقع فى كيفية سياسة الواقع .

يقول الشيخ الغزالى [فى يوم ما ، قالوا : لا تُختزن لحوم الأضاحى ، لماذا ؟ لأن الناس فى أزمة ، وفى حاجة إلى توسعة ...ثم قيل : خزِّنوا لحوم الأضاحى ، لأن الناس ما تحتاج إلى كل ما ذُبح ... فقيل : الثانى نسخ الأول ! والحقيقة هى ... أن الحكم الخالد هو : إذا كان اللحم الموجود قليلا ، لابد من التوزيع وعدم الإدخار . وإذا كان كثيرا ، تستطيع أن تدخر... هذا هو الحكم الخالد ... والحكم الجزئى هو أنك قلت : كان الإدخار ممنوعا ثم أُبيح ... هذا غير صحيح ، وهذا عيب الذين يقولون بالنسخ : إنهم يظنون أن حكما انتهى أمره لأن القصة لا تتكرر ، القصة إذا تكررت تكرر معها المتصل بها] [3]

---

(١) سنن أبى داوود ـ باب حبس لحوم الأضاحى رقم ٢٨١٢ .

صحيح مسلم ـ عن عائشة ـ كتاب الأضاحى .

صحيح البخارى ـ عن سلمة بن الأكوع ـ كتاب الأضاحى .

(٢) سنن أبى داوود رقم ٢٨١٣ .

(٣) كيف نتعامل مع القرآن صـ٨٠ .

رأينا مما سبق أن تنزيل الأحكام يحتاج إلى الحكمة ، لأن الحكمة تشتمل على تحصيل العلم (العلم بالنص والعلم بالواقع) ، كما أنها تشتمل على كيفية تنزيل الحكم .

والذين لم يفهموا النص ولم يفهموا الحكمة فى الإنتقال منه إلى نص آخر ، ظنوا بأن النص الأول تم إبطاله نهائيا ، وأُعمل بدلا منه نص آخر ، مدعين بذلك : النسخ .

ويقول الشيخ الغزالى [قصة النسخ أو الحكم بتحنيط بعض الآيات ، فهى موجودة ولكن لا تعمل ، هذا باطل ، وليس فى القرآن أبداً ، آيةٌ يمكن أن يقال أنها عُطلت عن العمل وحُكم عليها بالموت ، هذا باطل ... كل آية يمكن أن تعمل لكن الحكيم هو الذى يعرف الظروف التى يمكن أن نُعمل فيها الآية .] (١)

فإذا كان الرسول ـ ﷺ ـ قد نهى فى أول الأمر عن زيارة القبور ، لما يصدر عن المسلمين من مظاهر شرك وجاهلية ، ثم لما طهرت قلوبهم واستنارت عقولهم وقوى إيمانهم ، سمح لهم النبى ـ ﷺ ـ بزيارة القبور . فإذا عاد المسلمون إلى الجاهلية مرة أخرى ، وبدرت عنهم مظاهر الشرك والجاهلية عند زيارتهم للقبور أو أضرحة الأولياء والصالحين ، فإن على المشرع أو الحاكم أن ينهاهم مرة أخرى عن زيارة القبور دفعا للمضرَّات التى تضر العقيدة.

وهكذا نرى أن الحكم يدور مع الحالة ، فكلما تجددت الحالة استدعت حكمها .

طلاقة النص وإطلاق الفكر والعمل

قلنا فيما سبق أن القرآن الكريم أو الوحى هو روح الله المرسل إلى الإنسان ، وأن من أهم صفات هذا الروح القرآنى : الطلاقة والحرية وانعتاقه من كل جمود وتحجر ، فهو يتجاوز الزمان والمكان .

وهذه الطلاقة هى من أسباب عالميته : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١) ، كما أنها من أسباب خلوده وأبديته وخاتميته ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب ٤٠).

ولما كان هذا الكتاب الكريم هو آخر الرسالات وخاتم الكتب ، كان من الحق على الله أن يجعله دائم البيان والتبيين ، فلا يكون للإنسان من بعده حجة على الله ، وكان حقا على الله أن يجعله شاملا على إجابات كل تساؤلات الإنسان .

---

(١) المصدر السابق صـ٨٣ .

وأما الروح الإنسانى (الفكر) ، فإن من صفاته أيضا : الطلاقة والحرية .

فالإنسان يتجاوز بروحه (بفكره) حدود الزمان والمكان ، بل إنه يُطلق المادة من قيودها ويُفجر طاقاتها ويحررها من جمودها . والطلاقة والحرية من صفات الروح ؛ لأنها فى الأصل نفخة من الرحمن فى جسد الإنسان ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (ص) .

وقلنا أن هناك علاقة ثنائية بين الروح القرآنى والروح الإنسانى ، فإذا كان الروح القرآنى هو البيان والهدى والرحمة ، فإن على الروح الإنسانى أن يكون دائم التوجه والتردد على الروح القرآنى لتحصيل البيان والهدى والرحمة ، أى أن الروح القرآنى هو المعلم والمرشد والهادى ، والروح الإنسانى هو المتعلم . وإذا أراد الروح الإنسانى أن يتعلم ويهتدى ، فليس عليه أن يطلب ذلك إلا من الروح القرآنى (كتاب الله ـ الوحى) .

فإذا كان الروح القرآنى موصوفا بالطلاقة ، فما هو المقصود بطلاقة النص ؟

طلاقة النص هى : قدرة النص على تجاوز حدود الزمان والمكان وقدرته على العطاء المتجدد والمستمر مما يجعله قادرا على إطلاق الفكر (الروح الإنسانى) ، فيحرره من قيود الزمان والمكان فيطلق قدراته فى العمل .

فطلاقة النص ، تعنى القدرة على التفاعل والتأثير فى الإنسان وفى الحياة ممايضمن التطور والإرتقاء المستمر لهما .

وإذا كان من وظيفة النص القرآنى (الروح القرآنى) أن يطلق الروح الإنسانى ويحرره، فإن الروح الإنسانى يكون مكلَّفا بالكشف عن النص ومعرفة المراد منه .

وطلاقة النص هى إعجاز من إعجازات كتاب الله ، فمع أن كتاب الله ـ كنص مكتوب ـ ثابت لم يتغير ولم يتحرف ولم يتبدل ، إلا أنه امتلك القدرة على التأثير والتجاوب والتفاعل المستمر فى الحياة ، وهذا بسبب التكشف المستمر للنص وعدم الإنغلاق أو التحجر [فتكشف النص القرآنى الكريم عن معانيه عبر العصور دون انفصال عن طبيعة اللغة التى نزل بها ، ودون الوقوع فى متاهات التأويل ودهاليز الباطنية ، هذه القدرة فى الخطاب القرآنى المجيد ، وجه من وجوه إعجازه وتساميه وتعاليه] [1]

---

(١) النص القرآنى . مقدمة د . العلوانى صـ١٢

ولكنه ـ كما قلنا ـ يجب على الروح الإنسانى (الفكر) بذل الجهد من أجل الكشف عن المراد الإلهى من النص ، وهذا ما قلنا عنه سابقا ـ قراءة النص فهمه ، كما عليه أن يقوم بقراءة الواقع وفهمه فهما جيدا ، لكى يطابق بعد ذلك بين المراد الإلهى والواقع فيتم تحقيق كتاب الله على الواقع .

كيفية إطلاق النص

لا شك أن الإنسان يحيا فى هذه الحياة وهو قرين لظروفها وأحوالها وأن الإنسان تتقلب عليه الظروف والأحوال ، فأحيانا كثيرة تكون ثابتة ومستقرة ومطمئنة ، وأحيانا تكون متغيرة متوترة قلقة صعبة .

والله العليم الحكيم ، يَعلم الإنسان ويعلم ما يلم به من ظروف وأحوال ويعلم قدرته وطاقته على تحمل هذه الظروف والأحوال . لذلك ، إمتلك النص القرآنى القدرة على توجيه الإنسان فى كل ظرف وحال دون الوقوع فى تناقض الأوامر وتنافرها .

ولا شك أن هناك أوامر وتكاليف مُلزمة للإنسان بأن يتبعها . ونعلم أن هذه الأوامر والتكاليف من الله هى فى قدرة الإنسان واستطاعته وطاقته مادامت ظروفه وأحواله مستقرة ومطمئنة . ولكن إذا قَسَت الظروف والأحوال على الإنسان ، فإن الله يفتح باب الرحمة والتيسير له عملا بقوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ واستجابة لعباده ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ .

وقد لاحظنا أن طلاقة النص وأسلوب إطلاق الفكر الإنسانى يأتى على طريقتين :

الطريقة الأولى : أن تكون نفس الآية مُقيَّدة ومُطلقة لحركة الإنسان .

الطريقة الثانية: أن تأتى آية بالتقييد والإلزام ، وتأتى آية أخرى بإطلاق حركة الإنسان.

وسوف نورد بعض الآيات التى توضح لنا طلاقة النص وكيفية إطلاق الفكر الإنسانى للعمل . وستكون معظم هذه الآيات من الآيات التى ادُّعى نسخها (الآيات الإثنتان والعشرون) .

الطريقة الأولى :

نفس الآية مُقيدة ومُطلقة لحركة الفكر والعمل .

من أمثلة ذلك ، قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٧٣) .

فى هذه الآية نجد أن فى أولها التقييد والإلزام بالنهى عن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل به لغير الله ، وهذا الإلزام يكون فى استقرار الأحوال والظروف .

أما فى حالة الإضطرار كحدوث المجاعات والأوبئة ، أو انقطاع ما أحله الله عن الإنسان وتوفر ما حرمه الله ، فمن اضطر إلى ذلك ـ غير باغٍ ولا متجوزاً لحدود الله ـ فلا إثم عليه . وذلك لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، كما أن النفس الإنسانية إذا اضطرت لذلك فسوف تفعل ، حتى لو علمت أن ذلك عصيانا لله ، وذلك لاضطرارها للحفاظ على نفسها ، وهذا من مقاصد الشريعة (حفظ النفس) .

الطريقة الثانية :

التقييد والإلزام فى آية والإطلاق بآية أخرى .

وسوف نقوم بالتعرف على طلاقة النص من خلال التطبيق على بعض الآيات الإثنتين والعشرين التى ادُّعى نسخها ، وذلك لكى يتبين لنا خطأ القائلين بالنسخ الناتج عن عدم فهمهم للنص أو الآية ، ولعدم فهمهم للروح العامة لكتاب الله .

طلاقة النص فى قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ﴾

الآية الأولى التى ادُّعى نسخها ، قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ١١٥) . قيل أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (البقرة : ١٤٤) .

فكما نرى أن قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ هى الآية المُقَيدة والملزِمة للإنسان ، وذلك يكون إذا توفرت له الظروف والأحوال من الأمن والإطمئنان والإستقرار ومعرفة جهة القبلة .

ولكن الإنسان لا تستقر أموره على الدوام ، فبعد أن يكون مستقراً يكون مرتحلا ، وبعد أن يكون صحيحا يكون مريضا ـ وبعد أن يحيا فى السلم يكون مقاتلا ، وبعد أن كان عالما باتجاه القبلة حدثت له ظروف فعُميَّت عليه القبلة ، فهل تتجمد حركة الإنسان ويتعطل عن القيام بالتكليف ، أم أن الله يُحرر حركته ؟

فمن أجل إطلاق فكر الإنسان ومن أجل إطلاق حركته ، قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

فقد قيل فى أسباب نزول هذه الآية ، أن القبلة عُميت على قوم فلم يتبينوها ، فصلى كل فرد إلى الوجهة التى ارتاح إليها ، ثم لما أصبحوا شكوا ذلك للرسول ـ ﷺ ـ فأنزل الله هذه الآية . هذا إن كانت هذه الآية تقصد التوجه فى الصلاة .

أما إذا كان المقصود التوجه العام فى كل وقت إلى الله ، فإن هذه الآية تُطلق حركة الإنسان فى أن يتوجه فى كل وقت وحيث شاء إلى الله تعالى .

فإذا كان الإنسان مُطالَباً بأن يستمد القوة من الله وأن يطلب العون منه وأن يتوجه إليه فى كل وقت وحين ، فهل يفعل ذلك ؟ أم يظل عاطلا عن الحركة ؟

ومن هنا نجد طلاقة النص فى قوله تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ .

إن الله لا يقيد حركة الإنسان ، بل إنه دائما يطلق الطاقات والإمكانيات الموجودة داخل الإنسان . فنلاحظ دائما أنه : إن كان هناك نص يوجب حُكما محدداً ، فإننا نجد نصاً آخر يكون مُطلقا من الحدود والقيود ، وإنما يتسع لجميع أحوال الإنسان وظروفه .

وحيث أن قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ هو الحكم الإلزامى للمسلم فى حال اطمئنانه واستقراره وعلمه بجهة القبلة ، فإنه فى حالة سفره ، أو فى حالة عدم اطمئنانه واستقراره ـ كأن يكون مقاتلا مواجها لعدوه ـ أو فى حالة عدم تعرفه على اتجاه القبلة ، وكل هذه ظروف تُلم بالإنسان المسلم ، فإنه فى مثل هذه الأحوال ، يلزمه نص يتجاوب معه ومع واقعه المؤثر عليه ، نصا يكون مرنا غير متحجر ، نصا يطلق حريته وحركته فى الوجود ، لذلك كان قوله تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ هو النص المطلق لحركة الإنسان ، وهو النص العبقرى الخالد الذى يتجاوب مع حركة الإنسان فى الوجود .

فعبقرية النص وإعجازه تكمن فى فاعليته الدائمة المستمرة فى الوجود ، وحياة أى نص [تنبثق من فاعلية ذلك النص فى الحياة ، كما أنها تنمو وتستمر إنطلاقا من قدرة النص على الإسهام فى نمو الحياة واستمرارها .] (١)

طلاقة النص فى آيات الوصية

قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة : ١٨٠) .

---

(١) النص القرآنى صـ١٢٩ .

الآية تفيد أن الوصية للوالدين والأقربين فرض مكتوب وحق واجب على من حضرهم الموت من المسلمين . وقد قيل : أن هذه الآية منسوخة بآيات المواريث ، وقيل : أنها منسوخة بالسُّنة بقوله ـ ﷺ ـ لا وصية لوارث .

وقيل منسوخة بإجماع الأمة على عدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين .

وبعضهم قال بأن الآية محكمة ولكنها تنطبق على من حُرم الإرث من الوالدين والأقربين ، أو تنطبق على من له ظروف خاصة تقضى بزيادة العطف عليه ، كالعجزة وكثيرى العيال من الورثة .

يقول الإمام الطبرى : [إن قال قائل : أَوَ فَرضٌ على الرجل ذى المال أن يوصى لوالديه ... وأقربيه الذين لا يرثونه ؟ قيل : نعم] (١)

وليس هناك دليل قاطع على أن آية الوصية نزلت قبل آية المواريث لكى يقال : أن آية المواريث لما نزلت نسخت آية الوصية . كما أنه لا تعارض بين آية الوصية وآيات المواريث. كما أن آيات المواريث تتضمن الوصية إذْ أنها تنتهى بقوله تعالى ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ ، وهذا يقوى التأكيد على الوصية وليس نسخها ، بل إن تنفيذ الوصية يكون أسبق من تنفيذ الدين والمواريث ، وهذا يؤكد أن الوصية من الله أهم من المواريث .

والذى يؤكد طلاقة الوصية هو أن كلمة (وصية) تأتى منكَرة ، غير معرَّفة فى آيات الإرث بسورة النساء ، وهذا التنكير يعطى الطلاقة والحرية لتصرفات المورِّث ، فله أن يوصى بأى خير يراه .

فالوصية دعوة إلى المرحمة وفعل الخيرات ، وتتضمن فى معناها : التنبيه ومداومة التذكير. فالغرض من الوصية هو إعطاء الطلاقة والحرية للفكر والعمل .

والوصية هى دائما ، عامة لكل خير ، وإنما خص الله الوالدين والأقربين للتذكير بهم ، ولأنهم الأوْلى بفعل الخيرات لهم من غيرهم .

فالذين قالوا بعدم وجوب الوصية للوالدين والأقربين ، أو قالوا بأنها لا تنطبق إلا على من حُرم الإرث منهم ، ظنوا أن هناك تعارضا بين الوصية وبين آيات المواريث ، وفى الحقيقة ، أن آيات المواريث هى الآيات المقيِّدة الملزمة ، وهى التى ينطبق عليها قول رسول الله ـ ﷺ ـ (إن الله أعطى لكل ذى حق حقه) فالميراث مقاديره معروفة ، وهو مكتوب على المسلم ، وكل ذى حق سوف يحصل على حقه بتوزيع من الله ، ، وليس بتوزيع من المورِّث .

---

(١) الطبرى جـ٢ صـ١٦٦ .

ولكن هناك توزيعا من المورِّث قبل توزيع الميراث ، وهذا التوزيع هو الوصية ، التى بها ينطلق فكر المورِّث فى الوجود ، فيفعل ما يراه من الخيرات ، فهو حُر فى ماله وحُر فى تصرفاته ، وهو بعد ذلك مسئول عن هذه التصرفات أمام الله .

والوصية هلى سبيل من سُبل الإنفاق ، بل إنها تستوعب سبل الإنفاق كلها ، والدليل على أن الوصية لا تتعارض مع آيات المواريث ، أن المسلمين عندما سألوا عن سبل الإنفاق كما يقول تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (البقرة : ٢١٥) . فالله ـ سبحانه ـ خص الوالدين ثم الأقربين بما يُنفق المسلم من خير ، ثم وسَّع دائرة الإنفاق حتى تشمل اليتامى والمساكين وابن السبيل . كما أنه تعالى يقول ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ (النساء : ٨) .

فالله ـ سبحانه ـ يريد أن يعم الخير الجميع ، ولا يستأثر به طائفة من الناس دون الآخرين ، فلا يكون المال متداولا بين الأغنياء فقط ، لذلك فإن الله يقول ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ (الحشر : ٧) . فالله ـ سبحانه ـ يريد أن يوزع الخير بين المسلمين ، ليحَدُث شىء من التوازن الإجتماعى ، وتقريب الفروق بين الطبقات . والوصية سبيل لتحقيق هذا الهدف ، وهى عند الله فى التنفيذ أَوْلى وأسبق من المواريث كما قال تعالى ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ .

فإن كانت آيات المواريث هى الآيات الملزِمة والمقيِّدة والمقدِّرة مقاديرها ، وأن هذه المقادير لا تقدَّر إلا مما تبقى من بعد تنفيذ الوصية لأن المال هو مال الموصى ، وهو حُر فى ماله ، وهو حر فى ما يوصى به دون ظلم لأحد ، فإن آيات الوصية هى الآيات المطلقة لفكر الإنسان والمحررة لحركته .

طلاقة النص فى قوله تعالى ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾

هناك نصان فى التقوى ، قيل أنهما متعارضان ، النص الأول قوله تعالى ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ (آل عمران : ١٠٢) والنص الثانى ، قوله تعالى ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن : ١٦) .

والتقوى لا تكون إلا عن العلم ، فاتقاء الإنسان للشيء يكون ناتجا عن علمه بمخاطر هذا الشيء .

والرسول ـ ﷺ ـ يقول فيما معناه (أنا أعرفكم بالله وأخشاكم له وأتقاكم) فتقوى الله تكون عن العلم . ومعرفة الناس لله تختلف من شخص لآخر فكل شخص بحسب اجتهاده وجهاده من أجل معرفة الله ، وبالتالى فإن كل من كانت معرفته بالله أقوى ، فإن تقواه لله وخشيته منه تكون أقوى .

وحيث أن لكل إنسان قدرته على العلم والمعرفة ـ بحسب اجتهاده ـ فإن الناس يختلفون فى ذلك ، لذلك فإن لكل أنسان استطاعته وإمكانيته ، لذلك فإن الله يقول ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى أن كل أنسان يتقى الله بأقصى ما يصل إليه من استطاعة ، وبالتالى فإن كل شخص يشعر بأنه اتقى الله بأقصى ما يمكن . يظن بأنه اتقى الله حق تقاته.

ولكن الله يريد أن يفتح الآفاق أمام الفكر لكى يرتقى الإنسان فى العمل ، فأورد قوله تعالى ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ ، لكى يعلم المسلم أنه مطالب دائما بالسمو والتعالى والإرتقاء إلى تقوى الله حق تقاته ، فيظل يسعى سعيا حثيثا بهدف الإرتقاء بأخلاقه ، ناشدا الكمال الأخلاقى المتمثل فى رسول الله ـ ﷺ .

وبالتالى فإن قوله تعالى ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ أكثر حياةً وأكثر انفتاحا وأكثر انطلاقا واستمرارا فى ارتقاء الإنسان ، ذلك لأن هذا النص ذو فاعلية مستمرة فى الحياة مما تؤدى إلى نمو الحياة وارتقائها ، فحياة النص تنبثق [من فاعلية ذلك النص فى الحياة كما أنها تنمو وتستمر إنطلاقا من قدرة النص على الإسهام فى نمو الحياة واستمرارها] (١)

طلاقة النص فى قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ (المائدة : ٢) .

عند التعرض لهذه الآية ـ فى الفصل الخاص بمناقشة الآيات التى ادُّعى أنها منسوخة ـ قلنا أنها كلها خطاب للمسلمين المؤمنين فيما ينبغى فى التعامل بينهم إذ ما زارت جماعة من المسلمين من أى بلد إسلامى بيت الله الحرام .

---

(١) النص القرآنى صـ١٢٩ .

وقلنا أنه إذا قال قائل : إن هذه الآية ليست للحديث عن المسلمين وبعضهم ، ولكنها كانت بين المسلمين وكفار قريش ـ حين صد كفار قريش المسلمين عن القيام بالحج ـ وقد نزلت الآية فى ذلك .

قلنا أن كلام الله لا ينحصر فى زمان ولا مكان ، ولا يتقيد بسبب النزول فإن أسباب النزول قد زالت وزال زمانها ومكانها وأحداثها ، وبقى كلام الله خالدا مطلقا . ولو قلنا أن هذه الآية مقيدة بسبب النزول ، وقد زال كفار قريش ولم يصبح فى مكة كفار ، ولم يعد هناك صدٌّ عن البيت الحرام ، لقلنا أن الآية لم يعد لها فائدة ، مادامت الحادثة التى نزلت بسببها قد مضت وانقضت . وليس هذا صحيحا ، لأن كلام الله مطلق من حدود الزمان والمكان ومن أسباب النزول .

فهذه الآية غير منسوخة ، وهى عاملة مطلقة فى الوجود ، تعمل عملها عندما يتجدد الحدث ، وقلنا أنه فيما سبق ، وقبل استحداث المواصلات البرية والبحرية والجوية ، عندما كان الحجاج يذهبون لزيارة بيت الله الحرام على الإبل والخيول والبغال والحمير ، فإنهم كانوا يتعرضون للنهب والسرقة ، وهذا استحلال من المسلم لحرمات أخيه المسلم .

وكذلك يمكن أن يحدث ـ أو قد حدث ـ خلاف بين أهل البيت الحرام (السعودية) ، وبين أى دولة إسلامية أخرى ، مثل ما حدث مع إيران وكذلك العراق (حرب الخليج). فالله يخاطب أهل البيت الحرام بأن لا يحلوا شعائر الله ، وأن لايمنعوا زوار بيته من الدول المخالفة من الزيارة ، لأن البيت بيته وليس بيتهم ، وهو مزار لجميع من أسلم لله وآمن به . وكذلك يأمرهم بأن لا يستحلوا أموالهم وممتلكاتهم فلا يسرقوا هديهم ولا القلائد وأدوات الزينة والحلىّ التى يتزين بها الزوار المسلمين والمسلمات .

والقلائد إشارة لكل ما هو ثمين ويتقلده الإنسان ، بمعنى أنه يضعه على جسمه مثل الساعات والسلاسل والأساور والخواتم وغير ذلك . وذلك سواء فى رحلة الذهاب أو فى رحلة الإياب .

فالحجاج قد يزورون بيت الله ، ومعهم ما هو فى معنى (القلائد) لكى يبيعونها هناك فى موسم الحج ، فهم هنا يحملون هذه الأشياء فى رحلة الذهاب ، وهناك من يشترى هذه الأشياء فى موسم الحج ويعود بها ، وهذا فى رحلة الإياب . فلا يحل لأى مسلم أن ينهب ويسرق أخاه المسلم فى أى وقت سواء فى الأشهر الحرم أو غيرها .

كما أن الآية تدعو المسلمين من الدول الأخرى ، أنه لومنعهم جماعة من أهل البيت الحرام (السعودية) عن زيارة البيت الحرام ، لأنهم يكرهونهم ، فإنها تدعوهم أن لا يعتدوا على إخوانهم أهل البيت الحرام فيقول تعالى ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ﴾ ، ثم يأمر تعالى كلا الفريقين بالتعاون على البر والتقوى وترك العدوان والإثم والفسوق والبعد عن سبيل الله ، وأن يتقوا الله ويخافوه ، ويحرموا حرماته ويحترموها ، فيقول لهم ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

فالخلاف بين أهل البيت الحرام (السعودية) وبين أى دولة إسلامية أخرى ، شىء وارد ، ويمكن تحققه كثيرا فى المستقبل ، بل قد تحقق كثيرا ، والآية تعالج هذا الموضوع ، فهى آية غير منسوخة ، بل مطلقة فى الوجود ، قادرة على العطاء وعلى التحقق فى الواقع . وهذا يدلنا على أن كلام الله كله مطلق ومحكم وليست هناك آيات يُدَّعى أنها منسوخة .

طلاقة النص فى قوله تعالى

﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ (المائدة : ٤٢) .

الحكم الإلزامى المقيد الذى لا محيص عنه هو أنه : إذا حكمت بين الناس فاحكم بالعدل . وهذا الحكم الذى أمر الله به رسوله وغيره من الناس يظهر فى أقواله تعالى ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ (المائدة : ٤٩) ، ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ (المائدة : ٤٢) ، ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (النساء : ٥٨) .

فما دام الإنسان سيحكم ، فعليه أن يحكم بالعدل وبما أنزل الله . ولكن إذا رأى النبى ـ ﷺ ـ أن المتحاكمين إليه من أهل الكتاب غير جادين ، وأنهم لن يأخذوا بحكمه ، وأن وقته سيضيع معهم ، فله أن يُعرض عنهم . إذْ أنه لو كانوا يريدون الحق لوجوده عندهم فى التوراة والإنجيل ، إذ أن الله يقول ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴾ (المائدة : ٤٣) .

وهكذا نجد أن الآية التى يُدعى أنها منسوخة ، هى أكثر طلاقة من الآية التى يُدعى أنها ناسختها ، إذ أنها حررت حركة الإنسان من الإلزام والتقييد ، إذا ماكان هذا الإلزام

أو هذا التقييد لن يفيد . فإذا كان المتحاكمون ، لن يستفيدوا من حكم الحاكم الذى يحكم بكتاب الله ، وأن الحاكم رأى أنهم لن ينفذوا ما حكم به ـ خصوصا وأنهم من ملة أخرى ـ وأنهم غير جادين ، ورأى أن هذا مضيعة لوقته وهيبته ، فله أن يُعرض عنهم ليخزيهم . إذْ أن فى الإعراض عنهم خزى لهم ، لأنه ألمح إليهم بطرف خفىّ أنهم غير جديرين بأن يحكم بينهم .

فالتخيير فى أن يحكم وأن لا يحكم ، هو من طلاقة النص الذى يؤدى إلى طلاقة الفكر وتحرره ، فيؤدى إلى حرية الحركة العملية للإنسان .

طلاقة النص فى قوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (المائدة : ١٠٦) .

هذا خطاب للذين آمنوا ، بأنه إذا حضر أحدهم الموت ، فإنه حين يكتب وصيته فإنه يشهد إثنين ذوى عدل منكم (أى من المؤمنين) ، وهذا سيكون فى السفر أو فى الإستقرار. أى أن الموصى قد يكون مستقرا فى وطنه بين ذويه ، وقد يكون مسافرا مغتربا فى بلد يدين بملة الإسلام ، فيشهد على وصيته اثنين من المؤمنين .

وإن كان ضاربا فى الأرض ، مهاجرا مغتربا باحثا عن الرزق أو محصلا للعلم ، وحضره الموت ، فإنه يشهد على وصيته إثنين ممن يحضرون وفاته . وقد يكونا من أهل ديانته مغتربين مهاجرين مثله ، وقد يكونا من غير أهل ديانته .

والمهم هنا : هو أن الله ـ سبحانه ـ لم يعطل الوصية ، سواء كان الشاهدان من المؤمنين أو من غير المؤمنين ، بل أعملها فى كل الظروف التى يمكن أن تحيط بالإنسان . فإن كان المسلم مغتربا مهاجرا فى بلاد الكفر وحضرته الوفاة ، فإن كتابه الوصية وإشهاد اثنين من أهل هذه البلاد ، وتوصيتهما بإبلاغ وصيته ، خير من الموت بدون ترك الوصية . ذلك لأن الوصية يتعلق بها حقوق الآخرين ، وقد يكون الموصى قد ظلم أحدا فى حقوقه ، وأراد أن يُرجع هذا الحق لأصحابه قبل الوفاة . لذلك شرع الله الوصية ، ولم يعطل تنفيذها فى أى ظرف ، لأن إعمالها خير من تركها ، ولو كان الشاهدان عليها كافرين .

وهذا إطلاق لحركة الإنسان فى الحياة ، فلو لم يُبح الشارع الحكيم إشهاد غير المسلمين ، لضاق الأمر على المسلم وضاعت وصيته ، وضاعت حقوق الآخرين .

والخلاصة ، أنه إذا اتتبعنا الآيات التى ادُّعى نسخها ، سنجد أنها أكثر طلاقة وأكثر فاعلية فى الوجود وأكثر انفتاحا عليه ، من الآيات التى ادُّعى أنها ناسخة . فالآيات التى ادُّعى نسخها أكثر حيوية وأكثر إطلاقا وتحريرا لحركة الإنسان . ولو كان للنسخ حقيقة ووجود لقلنا أن هذه الآيات كان يجب أن تكون هى الناسخة وليست المنسوخة مادامت هى الأكثر انطلاقا وحيوية فى الوجود . ويبدو أن القائلين بالنسخ ـ لضيق نظرهم وتحجر فكرهم ـ لم يستطيعوا أن يستوعبوا طلاقة هذه الآيات وحيويتها وديناميتها ، فحكموا عليها بالإبطال .

خلاصة البحث فى هذا الفصل

١ ـ دعاوى النسخ دعاوى شخصية ، ناتجة عن فهم المدعى فهما خاطئا لكتاب الله .

٢ ـ دعوى النسخ تهدم عالمية الإسلام وخلود كتابه .

٣ ـ دعوى النسخ تؤدى إل تعطيل كتاب الله .

٤ ـ فتح باب النسخ يؤدى إلى مخاطر كثيرة ، وأول هذه المخاطر إلغاء خاتمية الكتاب .

٥ ـ القرآن الكريم هو روح الله المرسل إلى الإنسان ، فهو الوحى الدائم التنزل على كل إنسان فى كل زمان ومكان عند قراءته وتدبره ، ومن هذه الوظيفة يتحقق الكتاب بالخاتمية وكذلك بالعالمية وبالخلود .

٦ ـ الغاية من إنزال الكتاب ـ الروح القرآنى ـ هو إلزام الروح الإنسانى ـ أى الفكر ـ بتعاليم الروح القرآنى وتطبيق ذلك عمليا . أى أن الروح الإنسانى عليه أن يتطابق فى أفكاره وأفعاله وتوجهاته مع تعاليم الروح القرآنى .

٧ ـ الإنسان هو الوسيط الواصل بين الله والكون ، فهو خليفة الله . ومعنى الإستخلاف : هو أن يقوم الإنسان بتحقيق مرادات الله فى الوجود . ولكى يقوم بذلك ، عليه أن يقوم بتحصيل العلم من كتاب الوحى وكتاب الكون ، ثم عليه أن يتصف بالحكمة ، لكى يستطيع أن ينزل أحكام الله على الواقع تنزيلا حكيما ، فتتحقق بذلك خلافته . وهذا هو العطاء الذى أعطاه الله للأنبياء والرسل ليحققوه على أقوامهم .

٨ ـ بما أن الروح القرآنى ـ كتاب الوحى ـ من صفاته الطلاقة والحرية والإنعتاق من حدود الزمان والمكان ، وكذلك الروح الإنسانى ـ باعتباره نفخة الرحمن فى جسد الإنسان ـ يتصف بالطلاقة والحرية ، وحيث أنه توجد علاقة ثنائية تفاعلية بين الروحين ، فإن طلاقة النص هى قدرة النص على تجاوز حدود الزمان والمكان ، وقدرته على العطاء المتجدد والمستمر ، مما يجعله قادرا على إطلاق الفكر (الروح الإنسانى) ، فيحرره من قيود الزمان والمكان ، فيطلق قدراته على العمل .

٩ ـ إذا كان من وظيفة النص القرآنى (الروح القرآنى) إطلاق الروح الإنسانى (الفكر) وتحريره ، فإن من وظيفة الروح الإنسانى الكشف عن النص ومعرفة المراد منه ، أى عليه بالجهاد والإجتهاد .

١٠ ـ عبقرية النص القرآنى وخلوده تنتج عن ديناميته المستمرة وعطائه المتجدد لكل الظروف والإحوال وطلاقته فى الوجود .

obeikandl.com

obeikandl.com

خاتمة البحث وخلاصته

خلاصة البحث

التوصيات

obeikandl.com

obeikandl.com

خاتمة البحث وخلاصته

فى معظم فصول هذا البحث ، كتبنا خلاصة لكل فصل فى نهايته ، وسوف نختار من كل فصل النقاط الهامة التى تعطى صورة موجزة لما وصل إليه هذا البحث .

* ففى الفصل الأول نجد أن :

* أصحاب عبد الله بن مسعود هم أول من أضافوا كلمة (حكم) إلى معنى النسخ ، فقالوا فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾ أى (ما ننسخ من حكم آية) مع أن الآية الأصلية ليس فيها كلمة (حكم) . فأخطأوا فى ذلك وسار على خطئهم من سار .

* الإمام الطبرى كمفسر هو أول من تبنى هذا الرأى فأضاف كلمة (حكم) إلى كلمة (آية) فيكون تفسيره للآية أى (ما ننقل من حكم آية) . كما أنه أول من وضع القواعد الأولى للنسخ .

* فى الفصل الثانى نجد أن :

* إن كان هناك ما يسمى بالنسخ فإن الحكم لا يُنسخ فى نفس الشريعة التى أُصدر فيها، حتى لا تضطرب الأحكام ، ولا تتبلبل الأفهام ، فإذا كان كتاب الله هو آخر الكتب، إذاً ، فلا ناسخ لآياته .

* ما كان متروكا ومسكوتا عنه من الله ، فليس بحكم ، فإذا نزل حكم بعد ذلك فى ذلك المتروك أو المسكوت عنه ، فلا يعتبر ذلك نسخا ، لأنه لم يسبقه حكم شرعى أول .

* ما كان فى مقام الإبتلاء من أجل الإختبار والإصطفاء لا يعتبر حكما شرعيا ، لأنه موقوت بزمن الإبتلاء وانتهائه ، وبالتالى لا يصح فيه النسخ .

* أما فى الفصل الثالث فإنه يحتوى على أنواع النسخ كما يرى القائلون به .

* وفى الفصل الرابع نجد أن :

* القائلون بالنسخ ادَّعوا أنهم يلجأون إليه دفعا للتناقض الموجود فى كتاب الله ، وذلك إذا وجدوا ـ كما توهموا ـ أن هناك حكمين متعارضين .

* النسخ عندهم هو تعطيل وإبطال أحد الحكمين دفعا للتناقض الموجود فى كتاب الله.

* النسخ وجهة نظر شخصية ، وقول بالرأى غير مستند إلى نص قرآنى أو حديث نبوى.

* تمادى القائلون بالنسخ فى نسخهم وتعطيلهم لآيات الله ، ومن تماديهم فى النسخ : ادعاؤهم بجواز نسخ الناسخ . وادعاؤهم هذا يؤدى إلى نسخ كتاب الله كله وإبطاله .

* القائلون بالنسخ تجاوزوا القواعد التى وضعوها بأنفسهم ، فجعلوا الناسخ يأتى قبل المنسوخ .

* عند مناقشة الآيات التى استخلصها الإمام جلال الدين السيوطى ، والتى ادُّعى أنها يحق فيها النسخ ، وُجد أنها لا تعارض ولا تناقض بينها وبين الآيات التى ادُّعى أنها ناسختها ، ولكن سبب هذا الإدعاء هو :

١ ـ الفهم الخاطىء للآية التى ادعوا نسخها .

٢ ـ اختلاط موضوع الآيتين عند القائل بالنسخ . فالآية التى ادعوا أنها منسوخة تتحدث عن موضوع مغاير للآية التى ادعوا أنها ناسختها وبالتالى فإن لكل آية موضوعها، ولكل آية حكمها الخاص بها ، فلما ظنوا أن موضوعهما مشترك ، وقعوا فى الخطأ .

٣ ـ إقتطاعهم جزء من الآية وادعاء نسخه دون الآية ، وهذا لا يصح ، لأن كلام الله لا يُجزأ ولا يقطع ولا يفتت ، ولكن يؤخذ بعمومه وشموله .

٤ ـ فهمهم للآيات فهما بعيدا عن الروح العامة للوحى الكريم ، وبعيدا عن المقاصد العامة التى يهدف إليها .

* فى الفصل الخامس الخاص بالكشف عن حقيقة النسخ ، فإننا نجد الآتى :

* أن المقصود بكلمة (آية) فى قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ هو الآية الكونية الحسية وليس الآية المتلوة أو آية الوحى . لأن آية الوحى لا تُبدل ولا تُبطل ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَتِ ٱللَّهِ ﴾ .

* أن المقصود بالإنساء ليس النسيان الذى هو ضد التذكر ، ولكن الإنساء هو الترك والتثبيت للآيات الكونية . وليس الإنساء هو النسيان ، لأن الرسول لا ينسى ، ولأن القرآن نزل على قلبه واستقر فيه ، ولأن من وظيفته التذكير ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾، ومن كانت وظيفته التذكير لا ينسى .

كما أن الإنساء بمعنى النسيان ، لا يجريه الله على عباده ، لأنه يطلب منهم دائما أن يتذكروا ويفقهوا ويعلموا ويتفكروا ، ولا يطلب منهم أن ينسوا أو يتركوا ما ذكروا به.

* أن النسخ بمعانيه اللغوية الأربعة الموجودة فى لسان العرب ، لم يصح تطبيقها على الآية المتلوة (آية الوحى) ، وهذا يؤكد عدم وقوع النسخ فى كتاب الله .

* أن النسخ بمعنى الإبطال ـ بالذات ـ لم يَصدق تطبيقه ، لا على الآية المتلوة ـ لأن كلام الله لا يُبطَل ـ ولا على الآية الكونية الحسية ـ لأن خلق الله ليس باطلا ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ .

* أن النسخ فى كتاب الله هوالإبدال ـ كما قال ابن عباس ـ والإبدال يحتوى على فعلين للإرادة الإلهية وهما : محو شىء موجود ، وإيجاد شىء آخر جديد . وعلى هذا فالنسخ بهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ (الرعد : ٣٩) .

* النسخ شأن من شئون الله فى ملكوته ، يَنبع من صفاته تعالى : الخالق والخلاق والقدير والمالك ، فهو سبحانه يوجد ويُعدم ، ويحيى ويميت ، ويمحو ويثبت كما يشاء فى ملكوته .

* أن الخيرية تكون فى الآيات الكونية ، وليس فى آيات الوحى ، لأن الأحكام التى حكم بها الله على عباده ، كلها خير من أجل صالح العباد .

* أن المثلية فى قوله تعالى (أو مثلها) إذا انطبقت على الأحكام ، فهذا يدل على الجهالة والسفاهة وعدم الحكمة فى المشرع ، لأنه لا معنى أن يبطل المشرع حكما ثم يأتى بمثل هذا الحكم مرة أخرى .

* لو كان النسخ نسخ أحكام ، لختمت الآية بمثل قوله تعالى (ألم تعلم أن الله عليم حكيم) أو (والله عليم حكيم) . ولكن الآية خُتمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) ، فدل ذلك على أن كلمة (آية) هى الآية الكونية ، وليست الآية المتلوة ، لاحتياج الآية الكونية الحسية إلى القدرة لإخراجها إلى الوجود .+

* سياق الآيات التى بعد آية النسخ (البقرة : ١٠٦) دلَّ على أن المقصود بالآية هو الآية الكونية الحسية وليس الآية المتلوة .

* أما الفصل السادس الخاص بمناقشة (حقيقة تحويل القبلة) ، فنجد الآتى :

١ ـ ليس هناك نص قرآنى قاطع يأمر الله فيه نبيَّه بأن يتوجه إلى بيت المقدس ، كما أنه ليس هناك حديث نبوى يدل على أن الله أمر رسوله بذلك .

٢ ـ التوجه إلى بيت المقدس كان من المتروك المسكوت عنه ، وفى علم الله ـ سبحانه ـ أنه سيجعل من هذا الأمر ابتلاء لأتباع الرسول .

٣ ـ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ ، وأن هذا هو البيت الذى اختاره الله لعباده منذ بدء الخليقة ، فإذا كان هذا البيت هو القبلة الحق فما كان الله ليأمر بقبلة غيرها .

٤ ـ أمر الله نبيه ـ ﷺ ـ بأن يتبع ملة إبراهيم حنيفا ، ومن ضمن اتباع الملة ، هو اتباع القبلة (المسجد الحرام) .

٥ ـ السفهاء هم الذين يجهلون الحق ويعمون عن الحقيقة ، وهذا الحق الذى يجهلونه هو أن المسجد الحرام هو القبلة الحق . كذلك فإن السفهاء هم الذين ظنوا بأن الله أمر أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم غيَّر كلامه وبدَّله فأمرهم أمرا ثانيا بالتوجه إلى المسجد الحرام ، هؤلاء هم السفهاء ، لأن الله لم يفعل ذلك ، وأنه ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ (ق : ٢٩) وأنه ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس ٦٤) .

٦ ـ فى الحقيقة أن أمر القبلة لم يكن أمر تحويل ، بل كان أمر تعيين وتحديد لأن التحويل يتضمن فى معناه أنه كان هناك أمر أول من الله بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم حوَّلهم الله بعد ذلك ليتوجهوا إلى المسجد الحرام ، وهذا غير صحيح ، إذْ أن الأمر بالتوجه إلى

المسجد الحرام هو الأمر الأول والحكم الأول والأخير فى شريعة الإسلام ، بل وفى كل الشرائع السابقة ، إلا أن طول العهد وتحريف أهل الكتاب هو الذى غيب الحقيقة عن الناس .

٧ ـ إن الله وصف أمر التحويل أو التبديل للقبلة بأنه أمر عظيم وكبير (وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) . أى أن أمر التبديل يكون عظيما عند الله ، فالله لا يبدل كلماته ولا يُغير أقواله . كما أن من يظن ذلك ، فقد قال على الله قولا كبيرا وبهتانا عظيما .

٨ ـ قوله تعالى ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ دليل على تقلب القلب وقلقه وحيرته وعدم استقراره على أمر . وهذا معناه أن الرسول كان قبل هذه الآية غير مأمور بالتوجه إلى أى قبلة ، لأنه لو كان مأمورا قبل هذه الآية بالتوجه إلى بيت المقدس ، لَمَا تقلب وجهه باحثا عن قبلة ، ولَمَا كان له أن يختار لنفسه قبلة أخرى غير التى اختارها له الله . فهذا دليل آخر على أن أمر تعيين القبلة هو الأمر الأول والأخير . كما أن القبلة التى يرضاها الرسول هى القبلة التى رضيها الله له ولإبراهيم وللناس جميعا .

٩ ـ أن أهل الكتاب كانوا يعلمون أن المسجد الحرام هو القبلة الحق ، إلا أنهم حرفوا دين الله وأضلوا الناس ، فالله يقول (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم)، أى أن المسجد الحرام هو القبلة الحق . كما أنه تعالى يقول ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ أى أن ما أمرك به الله يا محمد هو الحق ، وأن المسجد الحرام هو القبلة الحق ، وليس بيت المقدس ، لأنه ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦) .

* أما الفصل السابع الخاص بأحدية الكتاب وثبات الأحكام فقد وجدنا فيه الآتى :

١ ـ أن الشرائع كلها نزلت من كتاب واحد ، هو الكتاب الأم الذى عند الله ، وهذا الكتاب كتاب محكم حكيم ، وبالتالى فإن جميع الشرائع التى نزلت منه هى شرائع محكمة متقنة ، لا اختلاف بينها ولا تعارض ، وبالتالى فهى لا تتغير ولا تتبدل لأن أصلها واحد هو الله .

٢ ـ أن هناك فرقاً بين (الشرعة) وبين (الشريعة) ، فالشرعة هى ابتداء الطريق ، وهى من الشروع والبدء فى عمل شىء ، وبالتالى فإن الشرعة هى (ابتداء فى التشريع) ، وهذا يوحى بالبدء كما يوحى بعدم الإكتمال ، فإذا تم اكتمال طريق التشريع ، فإننا نصل إلى (الشريعة) . فالشريعة هى الدين الكامل ، لذلك فإن الله قال عندما أكمل الشريعة وأتم الدين ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

٣ ـ أن الكتب التى أنزلها الله على رسله ، بما أنها نزلت من كتاب واحد هو الكتاب الأم الذى عند الله ، فإنها تصدق بعضها بعضا ، لأنه لا اختلاف بينها ولا تناقض ، وحيث أن القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم وهو الذى اكتملت به الشريعة ، وهو الكتاب الكامل ، إذاً ، فهو الكتاب المصدق لتلك الكتب السابقة والمهيمن عليها ، والحافظ لها من التحريف والتبديل ، كما قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة : ٤٨) . فإذا كانت الشرائع كلها نزلت من كتاب واحد ، وأن القرآن الكريم هو المصدق لهذه الكتب ، إذاً ، فالأحكام واحدة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، وبالتالى فإن دعوى النسخ دعوى باطلة سواء كانت للشرائع السابقة أو لكتاب الله (القرآن الكريم) .

* أما فى الفصل الثامن والأخير والمسمى بطلاقة النص ، فإن خلاصة البحث فيه تتلخص فى الآتى :

١ ـ أن دعاوى النسخ دعاوى شخصية وآراء ذاتية ، ناتجة عن فهم المدعى فهما خاطئا لكتاب الله .

٢ ـ دعوى النسخ تؤدى إلى تعطيل كتاب الله وتهدم عالميته وتلغى خاتميته وخلوده .

٣ ـ القرآن الكريم هو روح الله المرسل إلى الإنسان ، فهو الوحى الدائم التنزل على كل إنسان فى كل زمان ومكان عند قراءته وتدبره ، ومن هذه الوظيفة ـ وظيفة استمرار التنزل ودوامه ـ يتحقق الكتاب بالخاتمية والعالمية وكذلك بالخلود .

٤ ـ الغاية من إنزال الكتاب (الروح القرآنى) ، هو إلزام الروح الإنسانى (الفكر) بتعاليم الروح القرآنى وتطبيق ذلك عمليا . أى أن الروح الإنسانى (الفكر) عليه أن يتطابق فى أفكاره وأفعاله وتوجهاته مع تعاليم الروح القرآنى .

٥ ـ أن الإنسان هو الوسيط الواصل بين الله والكون ، فهو خليفة الله ، ومعنى الإستخلاف : هو أن يقوم الإنسان بتحقيق مرادات الله فى الوجود ، ولكى يقوم بذلك ، عليه أن يقوم بتحصيل العلم من كتاب الله ومن الكون ، ثم عليه أن يتصف بالحكمة ، لكى يستطيع أن ينزل أحكام الله على الواقع تنزيلا حكيما ، فتتحقق بذلك خلافته . وهذا هو العطاء الذى أعطاه الله للأنبياء والرسل ليحققوه على أقوامهم ، واكتمل هذا العطاء وتحقق فى الواقع على أكمل ما يكون للرسول محمد ـ ﷺ .

٦ ـ بما أن الروح القرآنى من صفاته : الطلاقة والحرية والإنعتاق من حدود الزمان والمكان . وكذلك الروح الإنسانى ـ باعتباره نفخة الرحمن فى جسد الإنسان ـ يتصف بالطلاقة والحرية . وحيث أنه توجد علاقة ثنائية تفاعلية بين الروحين ، فإن طلاقة النص فى كتاب الله هى قدرته على تجاوز حدود الزمان والمكان ، وقدرته على العطاء المتجدد والمستمر ، مما يجعله قادرا على إطلاق الفكر (الروح الإنسانى) فيحرره من قيود الزمان والمكان ويطلق قدراته فى العمل .

٧ ـ إذا كان من وظيفة النص القرآنى (الروح القرآنى) إطلاق الروح الإنسانى (الفكر) وتحريره ، فإن من وظيفة الروح الإنسانى : الكشف عن النص ومعرفة المراد منه ؛ أى عليه بالجهاد والإجتهاد .

التوصيات

بعد أن تحققنا من بطلان دعوى النسخ وتهاويها ، وبعد أن رأينا أن القائلين بالنسخ ارتكبوا جُرما عظيما فى حق الله وفى حق كتابه . أما الجرم الذى ارتكبوه فى حق الله ، فهو مانتج عن القول بالنسخ من أن الله يبدل كلماته ويغير أحكامه ، والله يقول ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ (ق : ٢٩) ويقول ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ (يونس : ٦٤) ، ويقول ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (الأنعام : ١١٥) . وأما الجرم الذى ارتكبوه فى حق كتاب الله ، فهو قولهم أنهم يلجأون إلى النسخ لرفع التناقض

الموجود فى كتاب الله بين حكمين ، ولكى يتم رفع التناقض بين الحكمين المتعارضين المتناقضين ـ كما توهموا ـ فإنهم يقومون بتعطيل وإبطال أحد الحكمين ، لكى يتم إعمال الحكم الآخر . وبالتالى فإن هذا الجرم ينقسم إلى جُرمين : جرم بسبب ادعائهم وجود تناقض فى كتاب الله ، وأنهم شمروا عن سواعدهم لكى يرفعوا هذا التناقض الموجود فى كتاب الله ! والله ـ سبحانه ـ يقول ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:٨٢).

والجرم الثانى بسبب إبطالهم لنصوص كتاب الله . وقد رأينا من خلال البحث أن الإبطال لا يكون إلا لما هو باطل ، وكلام الله ليس باطلا . فهو ـ سبحانه ـ يقول ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت) .

وبعد أن تهاوت دعاوى النسخ وتحقق بطلانها ، فإن هذا البحث يوصى بالآتى :

١ ـ تنبيه المسلمين على عدم تناول كتب (الناسخ والمنسوخ) .

٢ ـ حيث أن كتب التفسير ـ قديمها وحديثا ـ تتناول موضوع النسخ ـ بمعنى إبطال النص السابق وإعمال النص اللاحق ـ ويتناوله المفسرون وكأنهم موافقون عليه ، ومنهم من يمر عليه مرورا عابرا وكأنه يهرب من التعرض له ، فإن البحث يوصى بإظهار حقيقة النسخ ـ كما نتج من البحث عند التعرض لتفسيره الآية (البقرة : ١٠٦) ، وذلك فى التفاسير الحديثة ، وأما فى التفاسير القديمة ، فإنه يوصى عند إعادة الطبع بالتنويه إلى حقيقة النسخ .

٣ ـ بالنسبة للقبلة (المسجد الحرام) ، فإن المسلمين يحتفلون فى ليلة النصف من شعبان بتحويل القبلة ، وحيث أن هذا القول (تحويل القبلة) يحتوى على خطأ ، إذْ أنه يعترف ضمنيا بأن الله كان قد أمر المسلمين فى أول الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم غيَّر الله كلامه وبدَّله وأمرهم بأن يتوجهوا إلى المسجد الحرام . وحيث أن الله لم يأمر المسلمين بالتوجه إلى بيت المقدس ، ولكن كان أمره الأول والأخير هو التوجه إلى المسجد الحرام .

فالله لم يحول القبلة ، ولكنه ـ سبحانه ـ حوَّل وجوه المسلمين إلى المسجد الحرام . وهناك فرق بين التحويلين ، ولكى نوضح ذلك نقول :

إن تحويل القبلة يعنى أن الله حول كلامه وغيره وبدله ؛ أى أنه أمر المسلمين بأمر ثم غيره وبدله بأمر آخر ، وهذا خطأ وجرم فى حق الله .

وأما تحويل وجوه المسلمين من جهة إلى جهة ، أو من أمرٍ هُم عليه إلى أمر آخر يريده الله، فهذا فعل وإرادة الله ، وهذا من وظيفة الدين ووظيفة الرسول .

فوظيفة الدين هى أن يحوِّل الناس من عادات وأمور هم عليها ولا يرضاها الله ، ويوجههم إلى أمور أخرى يرضاها الله لهم .

فالله لم يحوِّل القبلة ، لأن القبلة منذ أن خلق الله الناس هى المسجد الحرام ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَلَمِينَ ﴾ (آل عمران : ٩٦) ، ولكن الله حوَّل المسلمين من فعل التوجه إلى بيت المقدس ، ووجههم إلى القبلة الحق (المسجد الحرام) . أى أن الله قام بعملية تقويم للمسلمين فى القبلة التى يتوجهون إليها . فأمْر التوجه إلى المسجد الحرام هو أمْر تصحيح لوضع خاطىء .

وبالتالى ، فعند الإحتفال فى ليلة النصف من شعبان ، لا نقول إحتفالا بتحويل القبلة ، ولكن نقول إحتفالا بتحديد القبلة وتعيينها وتوجيه المسلمين إليها . أو نزول الأمر الإلهى بتحديد وتعيين المسجد الحرام قبلة للمسلمين . وهو أمر تجديد ، لأن المسجد الحرام هو قبلة الناس منذ أن خلقهم الله ، كما أنها قبلة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبو الأنبياء ، ولكن أهل الكتاب حرفوا دين الله وكتموا الحق والحقيقة عن الناس ، كما يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) . فهذه الآية هى بشأن المسجد الحرام . أى أن أهل الكتاب يعلمون أن المسجد الحرام هو القبلة الحق .

obeikandl.com

مراجع البحث

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ تفسير الطبرى ـ دار الغد العربى .

٣ ـ فتح القدير ـ الشوكانى ـ عالم الكتاب .

٤ ـ مفاتيح الغيب ـ الرازى ـ دار الغد العربى .

٥ ـ الدر المنثور ـ السيوطى .

٦ ـ تفسير المنار ـ محمد رشيد رضا .

٧ ـ تفسير الشعراوى ـ أخبار اليوم . ٨ ـ فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق .

٩ ـ صحيح مسلم .

١٠ ـ سنن أبى داوود .

١١ ـ سنن الترمذى .

١٢ ـ سنن النسائى .

١٣ ـ صحيح البخارى .

١٤ ـ الأحاديث القدسية .

١٥ ـ الله ـ عباس العقاد ـ دار المعارف .

١٦ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين ـ ابن القيم ـ دار الجيل ـ بيروت .

١٧ ـ الإسلام عقيدة وشريعة ـ د . محمود شلتوت ـ دار الشروق .

١٨ ـ الإعلام فى القرآن ـ د . محمد عبد القادر حاتم ـ مكتبة الأسرة .

١٩ ـ أزمة العقل المسلم ـ د . عبد الحميد أبو سليمان ـ المعهد العالمى للفكر الإسلامى .

٢٠ ـ الإحكام فى الأحكام ـ ابن حزم الظاهرى ـ دار الفكر ـ بيروت .

٢١ ـ الإتقان ـ السيوطى ـ دار الفكر .

٢٢ ـ أسباب النزول ـ الواحدى النيسابورى ـ دار الحديث .

٢٣ ـ أصول الفقه ـ محمد الخضرى ـ المكتبة التجارية ط٥ .

٢٤ ـ البرهان ـ بدر الدين الزركشى .

٢٥ ـ بلاغة الخطاب ـ د . صلاح فضل ـ عالم المعرفة العدد ١٦٤ .

٢٦ ـ التوحيد وواقعنا المعاصر ـ د . عدنان النحوى ـ الرياض .

obeikandl.com

٢٧ ـ جامع بيان العلم وفضله ـ ابن عبد البر .
٢٨ ـ حقيقة الإيمان ـ عمر عبد العزيز قريشى .
٢٩ ـ دراسة الكتب المقدسة ..ـ د . موريس بوكاى ـ ليبيا .
٣٠ ـ السنن الإلهية ـ د . عبد الكريم زيدان ـ مؤسسة الرسالة .
٣١ ـ مجلة عالم الفكر ـ العدد ١٦٤ ـ الكويت .
٣٢ ـ فقه السنة ـ السيد سابق ـ الفتح للإعلام العربى .
٣٣ ـ فقه السيرة ـ محمد سعيد البوطى ـ دار الفكر .
٣٤ ـ فتاوى ابن تيمية ـ دار التقوى للنشر والتوزيع .
٣٥ ـ القرآن محاولة لفهم عصرى ـ د . مصطفى محمود ـ دار المعارف .
٣٦ ـ كيف نتعامل مع القرآن العظيم ـ د . يوسف القرضاوى ـ دار الشروق .
٣٧ ـ كيف نتعامل مع القرآن ـ د . عمر عبيد حسنة ـ محمد الغزالى ـ المعهد العالمى .
٣٨ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ دار إحياء التراث العربى .
٣٩ ـ مناهل العرفان ـ عبد العظيم الزرقانى ـ دار إحياء الكتب العربية .
٤٠ ـ مفهوم العبودية فى الإسلام ـ ابن تيمية .
٤١ ـ محاضرات فى تاريخ الدولة الأموية ـ الشيخ محمد الخضرى ـ المكتبة التوفيقية .
٤٢ ـ الموافقات ـ الشاطبى .
٤٣ ـ مختصر الصواعق المرسلة ـ ابن القيم ـ دار الحديث .
٤٤ ـ محاضرات فى الفقه الجنائى ـ محمد بهجت عتيبة ـ مطبعة المدنى .
٤٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ـ محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار الحديث .
٤٦ ـ النص القرآنى ـ د . وليد منير ـ المعهد العالمى للفكر الإسلامى .
٤٧ ـ النصرانية والإسلام ـ محمد عزت الطهطاوى .
٤٨ ـ الكتاب المقدس .